مطلع النور

أو

طوالع البعثة المحمدية

تأليف

عباس محمود العقاد

دار نهضة مصر للطبع والنشر

الفجالة - القاهرة

مقدمة المقدمات

مطلع النور عنوان هذه الصفحات

ومدار البحث فيها على البعثة النبوية – بعثة محمد عليه السلام – وما تقدمها من أحوال العالم ، وأحوال جزيرة العرب ، وأحوال الأسرة الهاشمية ، وأحوال أبويه الشريفين

ويدور البحث فيها على نوعين من المقدمات :
مقدمات تمهد لنتائجها وتفضي إليها .
ومقدمات تأتي النتائج بعدها كأنها رد فعل لها ، وعلاج لأسبابها وعواقبها .

مقدمات من قبيل الداء يأتي بعده الموت . فهو نتيجته وعقباه على الشرعة المعهودة في طبائع الأشياء .

ومقدمات من قبيل يأتي بعده الدواء . فليس هو بنتيجة له إلا على معنى واحد . وهو لحاق الدواء بالداء . وظهور الشفاء بعد الحاجة إليه .

مقدمات تتحقق بها قوانين الطبيعة
ومقدمات تتحقق بها عناية الله

ولا سيما حين تأتي الحاجة إلى الشفاء من غير المريض ، بل تأتي على الرغم منه وعلى خلاف ما يرجوه ويبتغيه

كيف نشأ التوحيد بعد التباس الوحدانية بالشرك واختلاط الأديان بين الآلهة والأوثان ؟

كيف نشأت ديانة الإنسانية بعد ديانات العصبية والأثرة القومية ؟

كيف نشأت نبوة الهداية بعد نبوة الوقاية والقيادة ؟

كيف أصبحت المعجزة تابعة للإيمان بعد أن كان الإيمان تابعا للمعجزة ؟

كيف ظهر الإسلام بعد عبادات لا تمهد له ولا يبقى عليها مقدمات لم تكن واحدة منها ممهدة لنتائجها ، وإن مهدت لها خطوة فى الطريق فقد تنكص بها بعد ذلك خطوات وخطوات

وهذه هى المقدمة التى لا تأتى بعدها النتائج الصالحة إلا بعناية من الله وانجاه بقوانين الكون وعوامله إلى حيث يشاء

فليست الجاهلية مقدمة للإسلام

وليس الفساد فى العالم سبباً للصلاح

وليست قريش ولا جزيرة العرب ولا دولة القياصرة ولا أبهة الأكاسرة هى التى بعثت محمدا لينكر العصبية على قريش ، ويعلم العرب تسفيه التراث الموروث من الآباء والأجداد ، ويثل العروش التى قام عليها الطغاه وتأله عليها الجبابرة من دون الله

هؤلاء جميعا كانوا صحبة البعثة المحمدية

وهؤلاء جميعا كانوا مريضها الذى شفى على يديها بغير شعور منه بالمرض وبغير سعى إلى الشفاء

وتلك هى المقدمات ونتائجها كما تتجه بها عناية الله

رسول يوحى إليه فيصنع الأعاجيب
ذلك ما يقوله المؤمنون بعناية الله

فإذا استطاع المنكرون أن يقولوا غير ذلك فليقولوه وليفسروه . فلا تفسير له عندهم إلا أن الفساد يصلح الفساد ، وأن الداء يشفى الداء . وأن الأسباب تمضى فى طريقها فتختلف بها الطريق وتذهب إلى حيث لا يفضى الذهاب

جاء محمد بدين الإنسانية فى أمة العصبية

جاء ينكر كل إله غير الواحد الأحد فى عالم يؤمن بكل إله غير الواحد الأحد . أو يؤمن به كأنه صنم من الأصنام يتعدد فى كل بيعة وكل مقام

أمحمد وحده يقدر على ذلك ؟
أمحمد يقدر عليه بعناية من الله ؟

أدنى القولين إلى عقل العاقل أدناهما إلى الإيمان . وأنآهما عن الصواب أنآهما عن الله

ولولا تدبير من الله لما ادخرت جزيرة العرب لهذه الرسالة لتخرج بالتاريخ الإنسانى كله إلى عالم جديد

° ° °

وسنرى فيما يلى من هذه الصفحات كيف تتناقض النتائج والمقدمات فلا تستقيم إلا بمقدمة واحدة ، وهى رسالة النبوة وعناية الله

وسنبدأ بالمقدمات من طوالع الغيب فى تأويل المتأولين إلى وقائع الحس والعيان فى أحوال العالم ، وأحوال الجزيرة ، وأحوال الأسرة ، وأحوال البيت الذى طلع منه نور النبوة ، وبزغ منه فجر التاريخ الجديد فى كل ما حوله ، وتحققت به عناية الله

ونرجو فى نهاية المطاف أن نبلغ بها نتيجة النتائج كما تتفق عليها نظرة الفكرة وبديهة الإيمان

وعلى بركة الله

الطوالع والنبوءات

على بركة الله نمضى فى سرد المقدمات التى سبقت البعثة المحمدية بنوعيها :

مقدمات ترتبط بما تلاها من حوادث ارتباط الأسباب بالمسببات

ومقدمات لا ترتبط بما تلاها هذا الارتباط ، بل لعلها تناقضها وتؤدى إلى خلافها ، ولكن ترتبط بها ارتباط الداء بدوائه والعلة بما يزيلها ، فليست النتائج هنا وليدة المقدمات . بل هى العلاج الذى يزيلها والآية التى تحول الأسباب الطبيعية إلى طريق الحكمة الأبدية التى تنكشف أوائلها من خواتيمها . خلافا للعرف الشائع من دلالة الأوائل على الخواتيم

ورائدنا فى متابعة هذه المقدمات بنوعيها أن ننظر فى الآيات الكونية والمعانى التاريخية . لأنها ولا شك عنوان إرادة الله المتصرف فى الكون كله ، ولأنها – على هذا – مفتوحة الصفحات لكل ناظر ومتأمل يعمل بفريضة الإسلام الكبرى وهى التفكير فى ملك الله والنظر بالعقل فى حقائق السماوات والأرض

رائدنا فى البحث عن مقدمات الدعوة النبوية أن إرادة الله ظاهرة فى ملكه وآيات خلقه . وإن الناس مطالبون بالنظر فى هذه الإرادة قبل النظر فى المعجزات والخوارق التى لا تأتى فى كل حين ولا تخص المؤمنين دون سائر المصدقين بالحس والعيان

وسؤالنا عن كل معجزة لا يدور على إمكانها أو استحالتها ، فليست المعجزات بالقياس إلى قدرة الله خالق الكون إلا كالمألوفات التى تجرى بها العادات فى كل يوم ، فإذا كانت الموجودات مخلوقة بخصائصها فالذى خلقها وخلق خصائصها يملك تغييرها وتبديلها ويأتى بالمعجزات كما يأتى بالمنظور والمطرد من النواميس والعادات ، وعقيدتنا فى ذلك عقيدة الإمام الغزالى رضى الله عنه حيث قال غير مرة إن الحوادث تجرى عند حصول الأسباب ولا تجرى بحصول تلك الأسباب ، فليست خصائص المادة من فعلها ولا إرادتها ولكن المادة وخصائصها جميعا من فعل الحكمة الإلهية التى تسخر كل شىء بمقدار

فنحن لا نسأل : هل المعجزة ممكنة أو غير ممكنة ، فإن العقل الذى يقول إن المادة لا توجد إلا هكذا أضيق من العقول التى تصدق كل شىء بغير بحث ولا برهان

ولكننا نسأل : هل المعجزة لازمة أو غير لازمة ؟ هل كان لها أثر مشهود فى الإقناع بالدعوة كما ينبغى لكل معجزة ، أو كانت فى تاريخ الدعوة عملا بغير أثر ولغير ضرورة ؟

ذلك أن الله جل وعلا يضع قوانين الطبيعة لحكمة ويخرقها لحكمة ، وتعالى الله عن العبث فى غير معنى . فلا يكون خرق القوانين وخلق المعجزات لغير قصد يعلمه شهود المعجزة التى تخالف مألوفهم ومجرى العادات أمامهم كل يوم

وقد أشرنا إلى ذلك فى كتابنا عن عبقرية محمد حين قلنا إن « علامات الرسالة الصادقة هى عقيدة تحتاج إليها الأمة ، وهى أسباب

تتمهد لظهورها ، وهى رجل يضطلع بأمانتها فى أوانها ، فإذا تجمعت هذه العلامات فماذا يلجئنا إلى علامة ؟ وإذا تعذر علينا أن تتجمع فأى علامة غيرها تنوب عنها أو تعوض ما نقص منها ؟ وقد خلق محمد بن عبد الله ليكون رسولا مبشرا بدين ، وإلا فلأى شىء خلق ؟ ولأى عمل من أعمال الحياة ترشحه كل هاتيك المقدمات والتوفيقات . وكل هاتيك المناقب والصفات ؟ لو اشتغل بالتجارة طول حياته كما اشتغل بها فترة من الزمن لكان تاجرا أمينا ناجحا موثوقا به فى سوق التجار والشراء . ولكن التجارة كانت تشغل بعض صفاته ثم تظل صفاته العليا معطلة لا حاجة إليها فى هذا العمل مهما يتسع له المجال . ولو اشتغل زعيما بين قومه لصلح للزعامة ولكن الزعامة لا تستوفى كل ما فيه من قدرة واستعداد . فالذى أعده له زمانه وأعدته له فطرته هو الرسالة الدينية دون سواها . وما من أحد قد أعد فى هذه الدنيا لرسالة دينية إن لم يكن محمد قد أعد لها أكمل إعداد

وقلنا عن بشائر الرسالة المحمدية إن المؤرخين « يجهدون أقلامهم غاية الجهد فى استقصاء بشائر الرسالة المحمدية : يسردون ما أكده الرواة منها وما لم يؤكدوه وما قبله الثقات منها وما لم يقبلوه . وما أيدته الحوادث أو ناقضته . وما وافقته العلوم الحديثة أو عارضته . ويتفرقون فى الرأى والهوى بين تفسير الإيمان وتفسير العيان وتفسير المعرفة وتفسير الجهالة . فهل يستطيعون أن يختلفوا لحظة واحدة فى آثار تلك البشائر التى سبقت الميلاد أو صاحبت الميلاد حين ظهرت الدعوة واستفاض أمر الإسلام ؟

« لا موضع هنا لاختلاف .

« فما من بشارة قط من تلك البشائر كان لها أثر فى إقناع أحد بالرسالة يوم صدع النبى بالرسالة ، أو كان ثبوت الإسلام متوقفا عليها ، لأن الذين شهدوا العلامة المزعومة يوم الميلاد لم يعرفوا يومئذ معزاها ومؤداها ولا عرفوا أنها علامة على شىء أو على رسالة ستأتى بعد أربعين سنة ، ولأن الذين سمعوا بالدعوة وأصاخوا إلى الرسالة بعد البشائر بأربعين سنة لم يشهدوا بشارة واحدة منها ولم يحتاجوا إلى شهودها ليؤمنوا بصدق ما سمعوه واحتاجوا إليه . وقد ولد مع النبى عليه السلام أطفال كثيرون فى مشارق الأرض ومغاربها . فإذا جاز للمصدق أن ينسبها إلى مولده جاز للمكابر أن ينسبها إلى مولد غيره ولم تفصل الحوادث بالحق بين المصدقين والمكابرين إلا بعد عشرات السنين . يوم تأتى الدعوة بالآيات والبراهين غنية عن شهادة الشاهدين وإنكار المنكرين . أما العلامة التى لا التباس فيها ولا سبيل إلى إنكارها فهى علامة الكون أو علامة التاريخ . قالت حوادث الكون لقد كانت الدنيا فى حاجة إلى رسالة ، وقالت حقائق التاريخ لقد كان محمد هو صاحب تلك الرسالة . ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون وعلامة التاريخ . . »

* * *

على هذا المحك البسيط نعرف أخبار الخوارق والمألوفات فى تاريخ الدعوات النبوية . وينبغى أن نقرر فى هذا المقام - لأنه مقامه الذى يذكر فيه - أن المؤرخ المسلم الذى يكتفى بالآيات الكونية إنما يختار الطريق لأنه طريق واضح المعالم أمامه وأمام الناظرين الذين يعملون بهداية الإسلام فى تدبير الآيات والبحث عن الحقائق الموجودات ، ولكنه لو شاء لوجد لديه ذخيرة من الطوالع والنبوءات التى يعتمد أتباع الأديان

المختلفة على أمثالها . وقد يعز عليهم أن يجدوا أمثالها فى المصادر التى يؤمنون بها ولا يشكون . فلا يعتمد المؤرخ المسلم على الآيات الكونية لقلة الطوالع والنبوءات التى يثوب إليها - لو شاء - كما يثوب غيره ، وإنما يعتمد توثقا للبينة وإيثاراً لأفضل الحسنيين فى مقام المقابلة بين المتشابهات

ومن الحسن أن نأتى على أمثلة من الطوالع والنبوءات التى وجد فيها بعض المؤرخين المسلمين شواهد على ظهور النبى عليه السلام مكتوبة قبل أوان ظهوره بعشرات القرون ونلاحظ أن هؤلاء المؤرخين . أو أكثرهم . من فضلاء الهند وفارس والأمم الشرقية التى تتكلم غير العربية ، وسر ذلك أنهم ورثوا فى بلادهم طوالع الديانات السابقة ولم يشاءوا أن تكون هذه الطوالع مزايا خاصة تنفرد بها تلك الديانات ويعجزون هم عن الإتيان بنظائرها التى تقابلها فى كفة الديانة الإسلامية . فهم يتوخون إلزام الحجة بالدليل المماثل ولا يعييهم فعلا أن يجدوا ذلك الدليل مساويا أو راجحاً فى الدلالة على أدلة المتقدمين من أبناء الملل الغابرين ونحن نورد هنا بعض الأمثلة التى يستدعيها المقام ولا يجوز إهمالها فى تمهيد يحيط بجميع الشواهد والمقدمات ولو على سبيل الإجمال

من هذه الكتب كتاب باللغة الإنجليزية ألفه « مولانا عبد الحق فدیارتى » وسماه محمد فى الأسفار الدينية العالمية » واستفاد من مقارناته ومناقضاته بمعرفته للفارسية والهندية والعبرية والعربية وبعض اللغات الأوربية ، ولم يقنع فيه بكتب التوراة والإنجيل بل عمم البحث فى كتب فارس والهند وبابل القديمة . وكانت له فى بعض أقواله توفيقات تضارع

أقوى ما ورد من نظائرها فى شواهد المتدينين كافة ، ولا نذكر أننا اطلعنا على شاهد أقوى منها فى روايات الأقدمين أو المحدثين من أتباع الديانات الأولى أو الديانات الكتابية

ويقول الأستاذ عبد الحق إن اسم الرسول العربى « أحمد » مكتوب بلفظه العربى فى الساماڤيدا (Sama Vida) من كتب البراهمة ، وقد ورد فى الفقرة السادسة والفقرة الثامنة من الجزء الثانى ونصها أن « أحمد تلقى الشريعة من ربه وهى مملوءة بالحكمة وقد قبست منه النور كما يقبس من الشمس »

ولا يخفى المؤرخ وجوه الاعتراض التى قد تأتى من جانب المفسرين البرهميين ، بل ينقل عن أحدهم(سينا أشاريا) Syna Acharya أنه وقف عند كلمة « أحمد » فالتمس لها معنى هنديا وركب منها ثلاثة مقاطع وهى « أهم » و « آت » و « هى » . . وحاول أن يجعلها تفيد « أنى وحدى تلقيت الحكمة من أبى » . قال الأستاذ عبد الحق ما فحواه أن العبارة منسوبة إلى البرهمى « فاتزا كانفا » Kanva من أسرة كانفا ، ولا يصدق عليه القول بأنه هو وحده تلقى الحكمة من أبيه

ويزيد الأستاذ عبد الحق على ذلك أن وصف الكعبة المعظمة ثابت فى كتاب الأثارفا فيدا Atharva Vida حيث يسميها الكتاب بيت الملائكة ويذكر من أوصافه أنه ذو جوانب ثمانية وذو أبواب تسعة

والمؤلف يفسر الأبواب التسعة بالأبواب المؤدية إلى الكعبة وهى باب إبراهيم وباب الوداع وباب الصفا وباب على وباب عباس وباب النبى

وباب السلام وباب الزيارة وباب حرم ، ويسرد أسماء الجوانب الثمانية حيث ملتقى الجبال وهى فى قوله جبل خليج وجبل قيقعان وجبل هندى وجبل لعلع وجبل كدا وجبل أبى حديدة وجبل أبى قبيس وجبل عمر

ويضرب المؤلف صفحا عن تفسير البرهميين لمعنى البيت هنا بأنه جسم الإنسان ومنافذه ولا يذكره لأنه على ما يظهر يخالف القداسة الروحية فى البرهمية . ولا يأتى بتفسير للجوانب الثمانية عند تفسيره للأبواب بذلك المعنى

وفى مواضع كثيرة من الكتب البرهمية يرى المؤلف أن النبى محمدا مذكور بوصفه الذى يعنى الحمد الكثير والسمعة البعيدة . ومن أسمائه الوصفية اسم سشراڤا Sushrava الذى ورد فى كتابه الأثارڤا فيدا Atharva Vida حيث يشار إلى حرب أهل مكة وهزيمة « العشرين وستين ألفا مع تسعة وتسعين » وهم على تقدير المؤلف عدة أهل مكة وزعماء القبائل الكبار ووكلائهم الصغار كما كانوا يوم قاتلوا النبى صلوات الله عليه .

وللمؤلف صبر طويل على توفيق هذه العلامات وأشباهها يستخرج منها الطالع بعد الطالع والنبوءة إلى جانب النبوءة مما يغنى المثل عنه عن استقصاء جميع موافقاته وعلاماته

وكذلك صنع بكتب زرادشت التى اشتهرت باسم الكتب المجوسية فاستخرج من كتاب زندافستا Zend Avesta نبوءة عن الرسول يوصف بأنه رحمة للعالمين « سوشيانت » Soeshyant ويتصدى له عدو يسمى بالفارسية القديمة أبا لهب Angra Mainyu . ويدعو إلى إله واحد لم

يكن له كفوًا أحد (هيج جيز باوثمار) وليس له أول ولا آخر ولا ضريع ولا قريع ولا صاحب ولا أب ولا أم ولا صاحبة ولا ولد ولا ابن ولا مسكن ولا جسد ولا شكل ولا لون ولا رائحة

« جز آخاز وانجام انباز ودشمن ومانند و يار وبلدر ومادروزن وفرزند وجاى سوى وتن آسا وتنانى ورنك وبوى است »

وهذه هي جملة الصفات التي يوصف بها الله سبحانه في الإسلام : أحد صمد ليس كمثله شيء لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد ولم يتخذ صاحبة ولا ولدًا

ويشفع ذلك بمقتبسات كثيرة من كتب الزردشتية تنبئ عن دعوة الحق التي يجيء بها النبي الموعود وفيها إشارة إلى البادية العربية ، ويترجم نبذة منها إلى اللغة الإنجليزية معناها بغير تصرف « أن أمة زردشت حين ينبذون دينهم يتضعضعون وينهض رجل في بلاد العرب يهزم أتباعه فارس ويخضع الفرس المتكبرين ، وبعد عبادة النار في هياكلهم يولون وجوههم نحو كعبة إبراهيم التي تطهرت من الأصنام ، ويومئذ يصبحون وهم أتباع للنبي رحمة للعالمين وسادة لفارس ومديان وطوس وبلخ ، وهي الأماكن المقدسة للزردشتيين ومن جاورهم ، وأن نبيهم ليكونن فصيحا يتحدث بالمعجزات » [1]

وقد أشار المؤلف بعد الديانات الآسيوية الكبرى إلى فقرات من كتب العهد القديم والعهد الجديد فقال إن النبي عليه السلام هو المقصود بما

(١) صفحة ٤٧ من كتاب Mohammed in World Scriptures

جاء في الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية : « جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس ومن يمينه نار شريعة لهم » .

وجاء بالنص العبرى كما يلي :

« ويومر يهوه مسيناي به وزارح مسعير لامو هوفيع مهر باران واتا مر بيبوت قودش ميمينو ايش داث لامو » .

فترجمه هكذا : « وقال أن الرب جاء من سيناء ونهض من سعير لهم وسطع من جبل فاران جاء مع عشرة آلاف قديس . وخرج من يمينه نار شريعة لهم »

وقال إن الشواهد القديمة جميعًا تنبئ عن وجود فاران في مكة . وقد قال المؤرخ جيروم واللاهوتي يوسيبيوس Eusebius « ان فاران بلد عند بلاد العرب على مسيرة ثلاثة أيام إلى الشرق من أيلة »

ونقل عن ترجمة التوراة السامرية التي صدرت في سنة ١٨٥١ أن إسماعيل « سكن برية فاران بالحجاز وأخذت له أمه امرأة من أرض مصر » . ثم قال إن سفر العدد من العهد القديم يفرق بين سيناء وفاران إذ جاء فيه أن بني إسرائيل ارتحلوا « من برية سيناء . فحلت السحابة في برية فاران » . . . ولم يسكن أبناء إسماعيل قط في غرب سيناء فيقال إن جبل فاران واقع إلى غربها . وفي الإصحاح الثالث من كتاب حبقوق أن « الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران » فهو إذن إلى الجنوب حيث تقع تيمان بموضعها الذي تقع فيه اليمن مرادفها بالعربية . ولم يحدث

قط أن نبيًا سار بقيادته عشرة آلاف قديس غير النبي محمد عليه السلام ، وقوديش تترجم بقديس في رأى المؤلف الذى يناقش ترجمتها بالملائكة في الترجمات الأخيرة . كذلك لم يحدث قط أن نبيا غيره جاء بشريعة بعد موسى الكليم ، فقول موسى الكليم « إن نبيا مثلى سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم أبناء إبراهيم » يصدق على نبى من أبناء إبراهيم تقدمه في الزمن : ويرجح المؤلف أن المدينة التى نعلم فيها موسى عليه السلام في صحبة يثرون – أى شعيب – لم تكن هى مديان الأولى التى تخربت بالزلزال كما جاء في القرآن الكريم ، ولكنها كانت « مدينة » الحجاز التى سميت يثرب على اسم يثرون ، ومما يعزز ذلك أن بطليموس الجغرافي يقول بوجود موضوعين باسم مديان وإن كان قد أخطأ على رأى المؤلف في تعيين الموضعين . وقد جاء في سفر التكوين أن مديان بن إبراهيم الذى سميت مديان الأولى باسمه كان له أخ اسمه عفار ، وهو الذى يقول نوبل Knoble شارح التوراة أن ذريته كانت تنزل في عهد البعثة الإسلامية إلى جوار يثرب ، ولعل موسى تلقى اسمه في ذلك الجوار . إذ كانت تسميته العربية أرجح من تسميه المصرية أو العبرية ، فإن ابنة فرعون لا تسميه بالعبرية ولا يسميه بها من يريد خلاصه من مصير المولودين العبريين ، وصحيح أن كلمة ميسو Mesu بالمصرية معناها الطفل كما يقول بعض الشراح المحدثين ، ولكن اليهود لا يرضون لنبيهم ومخرجهم من أرض مصر اسما مستعارا من المصريين

• • •

ومن الجامعات التى عنيت عناية خاصة بهذه النبوءات جماعة الأحمدية الهندية التى ترجمت القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية ، فإنها أفردت للنبوءات والطوالع عن ظهور محمد عليه السلام بحثا مسهبًا في مقدمة الترجمة شرحت فيه بعض ما تقدم شرحا مستفيضا وزادت عليه نبوءة موسى الكليم تشتمل على ثلاثة أجزاء : وهى التجلى من سيناء وقد حصل في زمانه والتجلى من سعير أو جبل الشعر وقد تجلى في زمن السيد المسيح ، لأن هذا الجبل – على قول الجماعة الأحمدية – واقع حيث يقيم أبناء يعقوب الذين اشتهروا بعد ذلك بأبناء أشعر . وأما التجلى الثالث فمن أرض فاران وهى أرض التلال التى بين المدينة ومكة ، وقد جاء في كتاب فصل الخطاب أن الأطفال يحيون الحجاج في تلك الأرض بالرياحين من « برية فاران » . . وقد أصبح أبناء إسماعيل أمة كبيرة كما جاء في وعد إبراهيم فلا يسعهم شريط من الأرض على تخوم كنعان . ولا وجه لإنكار مقامهم حيث أقام العرب المنتسبون إلى إسماعيل ولا باعث لهم على انتحال هذا النسب والرجوع به إلى جارية مطرودة من بيت سيدها . وقد جاء في التوراة أسماء ذرية إسماعيل الذين عاشوا في بلاد العرب . وأولهم نبايوت أو نبات أبو قبائل قريش . الذى يقرر الشارح كاتريكارى Katripikari إنه أقام بذريته بين فلسطين وينبع ميناء يثرب ، ويقرر بطليموس وبليني أن أبناء قدور – قيدار الابن الثانى لإسماعيل – قد سكنوا الحجاز ، ويضيف المؤرخ اليهودى يوسفيوس إليهم أبناء أدبيل الابن الثالث في ترتيب العهد القديم ، ولا حاجة إلى البحث الطويل عن مقام أبناء دومة وتيماء وقدامة وأكثر إخوتهم الباقين فإن الأماكن التى تنسب إليهم لا تزال معروفة بأسمائها إلى الآن . ومن

نبوءة أشعيا التى سبقت مولد السيد المسيح بسبعمائة سنة يظهر جليا أن أبناء إسماعيل كانوا يقيمون بالحجاز . فى هذه النبوءة يقول النبى أشعيا من الأصحاح الحادى والعشرين : « وحى من جهة بلاد العرب تبيتين يا قوافل الددانيين . هاتوا ماء لملاقاة العطشان يا سكان أرض تيماء . . وافوا الهارب بخبزه فإنهم من امام السيوف قد هربوا . من امام السيف المسلول ومن أمام القوس المشدودةومن أمام شدة الحرب . فإنه هكذا قال لى السيد فى مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد قيدار »

ويعود المفسرون من الجماعة الأحمدية فيفسرون هزيمة قيدار بهزيمة المكيين فى وقعة بدر . وهى الهزيمة التى حلت بهم بعد هجرة النبى الى المدينة بنحو سنة كسنة الأجير

ويقرنون هذه النبوءة بنبوءة أخرى من الأصحاح الخامس فى سفر أشعيا يقول فيها : « ويرفع راية للأمم من بعيد ويصفر لهم من أقصى الأرض فإذا هم بالعجلة يأتون . . ليس فيهم رازح ولا عاثر ، ولا ينعسون ولا ينامون ولا تنحل حزم أحقائهم ولا تنقطع سيور أحذيتهم سهامهم مسنونة وجميع قسيهم ممدودة . حوافر خيلهم كأنها الصوان وبكراتهم كالزوبعة . . »

وهذه النبوءة عن رسول يأتى من غير أرض فلسطين لم تصدق على أحد غير رسول الإسلام

وتلحق بهذه النبوءة نبوءة أخرى من الإصحاح الثامن فى سفر أشعيا جاء فيها أن الرب أنذره ألا يسلك فى طريق هذا الشعب قائلا : « لا تقولوا فتنة لكل ما يقول له هذا الشعب فتنة ولا تخافوا خوفه

ولا ترهبوا . قدسوا رب الجنود فهو خوفكم وهو رهبتكم . ويكون مقدسا وحجر صدمة وصخرة عثرة لبيتى إسرائيل وفخا وشركا لسكان أورشليم فيعثر بها كثيرون ويسقطون فينكسرون ويعلقون فيلقطون . . صر الشهادة . أختم الشريعة بتلاميذى . فأصطبر للرب الساتر وجهه عن بيت يعقوب وانتظره »

فهذه النبوءة عن رسول الله الذى يختم الشريعة تصدق على نبى الإسلام ولا تصدق على رسول جاء قبله ولا بعده .

وتلحق بهذه النبوءة أيضا نبوءة من الأصحاح التاسع عشر فى سفر أشعيا يذكر فيها إيمان مصر بالرسول المنتظر « وفى ذلك اليوم يكون مذبح للرب فى وسط أرض مصر وعمود الرب عند تخمها . فيكون علامة وشهادة لرب الجنود فى أرض مصر لأنهم يصرخون للرب بسبب المضايقين فيرسل لهم مخلصا ومحاميا وينقذهم فيعرف الرب فى مصر ويعرف المصريون الرب فى ذلك اليوم فيقدمون ذبيحة وتقدمة وينذرون للرب ويعرفون به ويضرب الرب مصر ضربا فشافيا فيرجعون إلى الرب فيستجيب لهم ويشفيهم . فى ذلك اليوم تكون سكة مصر إلى أشور فيجىء الأشوريون إلى مصر والمصريون إلى أشور ويعبد المصريون مع الأشوريين فى ذلك اليوم يكون إسرائيل ثالثا لمصر ولأشور بركة فى الأرض . بها يبارك رب الجنود قائلا : مبارك شعبى مصر وعمل يدى أشور وميراثى إسرائيل »

فالذى حدث عن قدوم أهل العراق إلى مصر وذهاب أهل مصر إلى العراق إنما حدث فى ظل الدعوة الإسلامية ولم تتوحد العبادة بينهم قبل

تلك الدعوة ، وأن النبوءة ستتم غدا على غير ما يهواه بنو إسرائيل ، إذ تكون البركة لمصر وأشور ولا تكون إسرائيل إلا لاحقة بكلتا الأمتين

* * *

ثم ينتقلون بالنبوءات إلى سفر دانيال حيث جاء فى الأصحاح الثانى : « أنت أيها الملك كنت تنتظر وإذا بتمثال عظيم . هذا التمثال العظيم البهى جدا وقف قبالتك ومنظره هائل . رأس هذا التمثال من ذهب جيد ، وصدره وذراعاه من فضة ، وبطنه وفخذه من نحاس ، وساقاه من حديد ، وقدماه بعضها من حديد والبعض من خزف . كنت تنتظر إلى إن قطع حجر بغير يدين فضرب التمثال على قدميه اللتين من الحديد وخزف فسحقهما . فانسحق حينئذ الحديد والخزف والفضة والنحاس والفضة والذهب معاً وصارت كعصافة البيدر فى الصيف فحملتها الريح فلم يوجد لها مكان . أما الحجر الذى ضرب التمثال فصار جبلا كبيرا وملأ الأرض كلها »

ويلى ذلك تفسير النبى دنيال لهذا الحلم إذا يقول : « أنت أيها الملك ملك ملوك لأن إله السماوات أعطاك مملكة واقتدارا وسلطانا وفخرا ، وحيثما يسكن بنو البشر ووحوش البر وطيور السماء دفعها ليدك وسلطها عليك جميعها ، فأنت هذا الرأس من ذهب وبعدك تقوم مملكة أخرى أصغر منك ومملكة ثالثة أخرى من نحاس فتتسلط على كل الأرض وتكون مملكة رابعة صلبة كالحديد يدق ويسحق كل شىء ، وكالحديد الذى يكسر تسحق وتكسر كل هؤلاء وبما رأيت القدمين والأصابع بعضها من خزف والبعض من حديد فالمملكة تكون منقسمة وتكون فيها

قوة كالحديد من حيث إنك رأيت الحديد مختلطا بخزف الطين وأصابع القدمين بعضها من حديد وبعضها من خزف فبعض المملكة يكون قويا والبعض قصما ، وبما رأيت الحديد مختلطا بخزف الطين فإنهم يختلطون بنسل الناس ولكن لا يتلاصق هذا بذاك كما أن الحديد لا يلتصق بالخزف ، وفى أيام هؤلاء الملوك يقيم إله السموات مملكة لن تنقرض أبدا وملكها لا يترك لشعب آخر وتسحق وتفنى كل هذه الممالك وهى تثبت إلى الأبد : لأنك رأيت أنه قد قطع حجر من جبل لا بيدين ، فسحق الحديد والنحاس والخزف والفضة والذهب . . الله العظيم قد عرف الملك ما سيأتى بعد هذا الحلم حق وتعبيره يقين »

وتعود الجماعة الأحمدية إلى التاريخ لتستمد منه التعليق على تعبير النبى دنيال لتلك الرؤيا ، فمن كلام النبى دنيال يفهم أن الرأس الذهبى هو ملك بابل ، وأن الصدر والذراعين من الفضة تعبر عن مملكة فارس وميدية التى ارتفعت بعد دولة بابل ، وأن الرجلين من النحاس تعبران عن الدولة الإغريقية فى ظل الإسكندر لقيامها بعد زوال حكم الفارسيين والميديين ، وأن القدمين من الحديد تعبران عن الدولة الرومانية التى ارتفعت بعد ذهاب ملك الإسكندر . وتقول الرؤيا عن هذه الدولة الأخيرة أن قدما من قدميها خزف والأخرى حديد . وهو وصف يشير إلى جزء من الدولة فى القارة الأوربية وجزء منها فى القارة الآسيوية ، فالقدم الحديد هى سيطرة الأمة الواحدة والعقيدة الواحدة وهذه السيطرة تستولى على أقطار شاسعة وموارد غزيرة ولكنها تنطوى على الضعف الكامن من جراء التفكك بين أوصال الشعوب ، والرؤيا صريحة فى وشك انحلال الدولة الرومانية فى السنوات الأخيرة لهذا الســـ ،

وتستطرد من ثم إلى أمور أهم وأخطر إذ تقول : « إنك كنت تنظر إلى أن قطع الحجر بغير يدين فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقهما . فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معا وصارت كعصافة البيدر فى الصيف تحملها الريح فلم يوجد لها مكان . أما الحجر الذى ضرب التمثال فصار جبلا كبيرا وملأ الأرض كلها . . »

تقول الجماعة : « فهذه نبوءة بظهور الإسلام . فقد اصطدم الإسلام فى صدر الدعوة بدولة الرومان ثم بدولة فارس ، وكانت دولة الرومان يومئذ قد بسطت سلطانها على ملك الإغريق الإسكندرى فبلغت من المنعة غايتها ، وكانت دولة فارس قد بسطت سلطانها على بابل ، ثم ضربتها قوة الإسلام فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضة معا وصارت كعصافة البيدر فى الصيف ، وهكذا ينبئ ترتيب الحوادث وتعبيرها فى رؤيا دنيال أنباء لا ريب فى معناه . إذ كنا نعلم أن بابل خلفتها فارس وميدية وأن سطوة فارس وميدية كسرتها سطوة الإسكندر . وأن ملك الإسكندر خلفته الدولة الرومانية التى إقامت من عاصمتها القسطنطينية اركان مملكة أوروبية اسيوية . ثم انهزمت هذه المملكة وأدال منها الفتح الإسلامى وغزوات النبى والصحابة »

وهذا الحجر الذى جاء فى رؤيا دنيال يذكره أشعيا والحوارى متى . ففى الأصحاح الثامن من سفر أشعيا أنه « يكون مقدسا وحجر صدمة وصخرة عثرة لكل من بيتى إسرائيل ، وفخا وشركا لسكان أورشليم ، ويعثر بهما كثيرون ويسقطون ويعلقون فيقطعون »

وفى الأصحاح الحادى والعشرين من إنجيل متى يقول : « لذلك

أقول لك إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره . ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه »

كذلك يذكره المزمور الثامن عشر بعد المائة إذ يقول : « ان الحجر الذى رفضه البناءون قد اصبح عقد البناء وركن الزاوية »

ويتبين من كلام السيد المسيح فى الأصحاح الحادى والعشرين من إنجيل متى المتقدم أن هذه النبوءة تنبئ عن زمن غير زمن السيد المسيح ، إذ يقول عليه السلام . « أما قرأتم قط فى الكتب أن الحجر الذى يرفضه البناءون قد صار رأس الزاوية . من قبل الرب كان هذا هو عجيب من أعيننا »

ثم تفضى النبوءة — نبوءة النبى دنيال — إلى عقباها فيصبح الحجر جبلا عظيما ويملأ الأرض كلها . فإن هذا الذى حدث بعد انتشار الدعوة المحمدية . فإن الرسول الكريم وصحابته هزموا قيصر وكسرى وأصبح المسلمون سادة العالم المعمور كله فى ذلك العصر . وصار الحجر جبلا عظيما فظل زمام العالم فى أيدى أتباع محمد ألف سنة

ثم تتم نبوءات العهد القديم بنبوءات العهد الجديد . ويستشهد جماعة الأحمدية بالأصحاح الحادى والعشرين من إنجيل متى حيث يقول السيد المسيح : « اسمعوا مثلا آخر . كان إنسان رب بيت غرس كرما وإحاطه بسياج وحفر فيها معصرة وبنى برجا وسلمه إلى الكرامين وسافر ولما قرب وقت الأثمار أرسل عبيده إلى الكرامين ليأخذ أثماره . فأخذ الكرامون عبيده وجلدوا بعضا وقتلوا بعضا ورجموا بعضا ، ثم أرسل إليه أبنه أخيرا قائلا إنهم يهابون ابنى . فأما الكرامون فلما رأوا الابن قالوا فيما

بينهم هذا هو الوارث هلموا نقتله ونأخذ ميراثه ، فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه ، فمتى جاء صاحب الكرم فماذا يفعل بأولئك الكرامين ؟ قالوا له أنه يهلك أولئك الأردياء هلاكا رديئا ويسلم الكرم إلى كرامين آخرين يعطونه الأثمار فى أوقاتها . . قال لهم يسوع : أما قرأتم قط فى الكتب أن الحجر الذى رفضه البناءون قد صار رأس الزاوية ؟ . . من قبل الرب كان هذا هو عجيب فى أعيننا . لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره ، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه . ولما سمع الكهنة والفريسيون أمثاله عرفوا أنه تكلم عليهم ، وإذ كانوا يريدون أن يمسكوه خافوا من الجموع لأنه عندهم مثل نبى »

هذا المثل يبحثه كتاب المقدمة لترجمة القرآن فيقولون إن السيد المسيح قد لخص به تاريخ الأنبياء والرسل أجمعين . فالكرم هو الدنيا والكرامون العاملون فيه هم الجنس البشرى الكادح فى دنياه ، والثمرات التى يريد صاحب الكرم أن يحصلها هى ثمرات الفضيلة والخير والتقوى . والخدم الموفدون من صاحب الكرم إلى الكرامين هم الرسل والأنبياء ، ولما جاءهم السيد المسيح بعد اعراضهم عن الرسل والانبياء فغدروا به وأنكروه عوقبوا بتسليم الكرم إلى كرامين آخرين ونزع ملكوت الله منهم لتعطاه الأمة الأخرى الموعودة بالبركة مع أمة إسحاق ، وهى أمة إسماعيل ونبيها العظم محمد عليه السلام ، وهو الذى يصدق عليه وعلى قومه أنهم كانوا الحجر المرفوض فأصبح هذا الحجر زاوية البناء من سقط عليه رضه ومن أصيب به فهو كذلك مرضوض .

وتتلو هذه النبوءة فى إنجيل متى نبوءة متممة من الإنجيل نفسه حيث جاء فى الإصحاح الثالث والعشرين منه خطابا لبنى إسرائيل « هو ذا بيتكم يترك لكم خرابا ، لأنى أقول لكم إنكم لا تروننى من الآن حتى تقولوا مبارك الآتى باسم الرب » .

وفى الأصحاح الأول من إنجيل يوحنا تنبأ يحيى المغتسل أو يوحنا المعمدان مع الكهنة واللاويين ، إذ سألوه من أنت ؟ فاعترف ولم ينكر وقال إنى لست المسيح . فسألوه : إذن ماذا ؟ أنت إيليا ؟ فقال لا . قالوا : أنت النبى ؟ فأجاب : لا فقالوا له : من أنت لنعطى جوابا للذين أرسلونا ؟ ماذا تقول عن نفسك ؟ قال : أنا صوت صارخ فى البرية . قوموا طريق الرب كما قال أشعيا النبى » .

ويعقب أصحاب المقدمة للترجمة القرآنية على هذه النبوءات فيقول إنها كانت ثلاثا فى عصر الميلاد المسيحى كما هو واضح من الأسئلة والأجوبة : نبوءة عن عودة السيد المسيح ، ونبوءة عن نبى موعود غير ايليا والسيد المسيح .

ولقد أعلن السيد المسيح كما جاء فى الأصحاح الحادى عشر من إنجيل متى : « أن جميع الأنبياء والناموس إلى يوحنا تنبأوا ، وإن أردتم أن تقبلوا فهذا — أى يحيى المغتسل هو إيليا المزمع أن يأتى » .

وواضح من الأصحاح الأول من إنجيل لوقا أن الملك بشر زكريا بأن امرأته ستلد له ولدا وتسميه يوحنا . . « وأنه يكون عظيماً أمام الرب لا يشرب خمراً ولا مسكرا ويمتلئ من بطن أمه بالروح القدس ويرد

كثيرين من بنى إسرائيل إلى الرب إلههم ، ويتقدم أمامه بروح إيليا وقوته ليرد قلوب الآباء إلى الأبناء » .

وفى الأصحاح التاسع من إنجيل مرقس يقول السيد المسيح : « إن إيليا أيضاً قد أتى وعملوا به كل ما أرادوا كما هو مكتوب عنه » .

ويتكرر ذلك فى إنجيل متى إذ يقول : « إن إيليا قد جاء ولم يعرفوا بل عملوا به كل ما ارادوا » .

فالنبى إيليا قد تقدم إذن فى عصر الميلاد ، وقد جاء فيه المسيح أيضا ثم بقى النبى الموعود . ولم يظهر بعد السيد المسيح نبى صدقت عليه الصفات الموعودة غير محمد عليه السلام ، وكلام السيد المسيح فى الأصحاح السادس عشر من إنجيل يوحنا يبين للتلاميذ « أنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزى ، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم ، ومتى جاء ذلك يبكت العالم على خطيئة وعلى بر وعلى دينونة . فأما على خطيئة فلأنهم لا يؤمنون بى ، وأما على بر فلأنى ذاهب إلى أبى ولا ترونى أيضاً . وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين . وأن لدى أموراً كثيرة أقولها لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوها الآن ، وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى الحق جميعه . لأنه لا يتكلم من نفسه بل كان ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية . ذاك يمجدنى لأنه يأخذ مما لى ويخبركم . وكل ما للأب فهو لى . لهذا قلت إنه يأخذ مما لى ويخبركم وبعد قليل لا تبصروننى . . . » .

وقد جاء نبى الإسلام ممجدا للسيد المسيح يسميه روح الله ويجدد رسالته لأنها رسالة الله .

وبعد تأويلات شتى من قبيل ما تقدم تختم الجماعة الأحمدية بحثها بالإشارة إلى ما جاء فى الأصحاح الثالث من أعمال الرسل الذى ينبئ عن تتابع النبوات من صموئيل إلى السيد المسيح بظهور نبى كموسى الكليم صاحب شريعة يحقق الوعد لأبناء إبراهيم ويبارك جميع قبائل الأرض ، ويكون هذا النبى من إخوة بنى إسرائيل لا منهم . فهو من ذرية إسماعيل لا من ذرية إسحاق .

* * *

إن أبناء الهند وأبناء فارس – كما قدمنا – قد توفروا على هذا الدأب فى استخراج خفايا الكلمات والحروف والمقابلة بين المضامين والتأويلات وإتمام أجزاء منها بأجزاء متفرقة فى شتى المصادر والروايات ، ولكنهم لم ينفردوا بالبحث فى هذه النبوءات وهذه الطوالع خاصة وجاراهم فيها الباحثون من سائر الأمم واجتمعت فى كتاب « فتح الملك العلام فى بشائر دين الإسلام »[1] متفرقات لم ترد فيما أسلفنا من البحوث الهندية ، أو وردت عن منهج غير منهجها ، نلخص بعضه فيما يلى ولا نستقصيه لأنه يقع فى أكثر من مائتين وستين صفحة .

ويعتمد المؤلفان على الأصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين إذ جاء فيه أن أبناء إسماعيل سكنوا « من حويلة إلى شور التى أمام مصر حينما تجىء نحو أشور » فهم إذن سكان الحجاز لأن الحجاز هو الأرض التى بين أشور وحويلة إذ كانت حويلة فى اليمن كما جاء فى الأصحاح العاشر « إن يقطان ولد الموداد ، وشالف ، وحضرموت ، ويارح ،

(١) لمؤلفيه الاستاذين أحمد ترجمان ومحمد حبيب .

[illegible]

[illegible]

• • •

[illegible]

من هذه المقدمات ؛ ومهما يكن من رأى القارئ فى هذا العصر فالرأى الذى رآه الناس منذ ألوف السنين ولا يزالون يرونه لابد أن يكون له مكانه التاريخى ودلالته النفسية فى هذا السياق

ولسنا هنا بصدد الإسهاب والتفصيل فى نقد الأساليب التى يعتمدها الباحثون فى حل الرموز أو خلق هذه الرموز على الأصح فى بعض الأحيان ، لكننا نوجز فنقتصر التعقيب على مقطع الآراء الذى لا يطول عليه خلاف بين المنصفين ، فكل من راجع العلامات النبوية فى كتب الديانات من أقدمها قبل موسى وعيسى ومحمد عليه السلام إلى يومنا هذا يرى ولاشك أن العلامات التى لخصناها هنا من أقواها وأوضحها وأقلها اعتسافا واستكراها للألفاظ والتراكيب على غير معانيها ، وإنما ننظر إليها على كل احتمال مفروض فلا نرى أنها تغنى عن الدلائل الكونية ولا نعلم أن قيام الدعوة المحمدية قد اعتمد عليها عند أحد من المسلمين الأولين أو عند أحد من الذين دانوا بالإسلام فى الزمن الحديث

فإذا فرضنا أن التخريج صحيح فى كل ما أورده الباحثون المتقدمون وغيرهم فإن هذه العلامات لم تنفع أحدا من الذين كانوا يقرءون التوراة فى عهد الدعوة المحمدية ولم نعلم لهم موقفا من الدعوة غير اللجاجة والمكابرة والاشتداد فى الإنكار على نحو لم نعلمه من الجاهليين والذين لم يطلعوا على حرف من كتب العهد القديم . وإذا قدرنا أن هذه العلامات لم ترد قط فى كتاب سابق للدعوة المحمدية لم يكن ذلك مما يضير هذه الدعوة أو يصدها عن طريقها أو يسلبها وسيلة من وسائل الإقناع والذيوع التى اعتمدت عليها .

هذا على تقدير الصحة والصواب فى كل تخريج وفى كل علامة مذكورة مشروحة . فأما على غير هذا التقدير فلا حاجة بنا إذن إلى تعقيب طويل أو قصير

ولا ندع الكلام على النبوءات الغيبية حتى نقرر فيها الرأى الذى يسلمه المنصفون ولايجرؤ أحد على إنكاره باسم العلم أو باسم المنطق أو باسم القياس الصحيح

فما من أحد يجرؤ على أن يقول – باسم العلم – إن الإلهام بالغيب مستحيل . لأنه إذا جزم باستحالته وجب عليه قبل ذلك أن يجزم بأمور كثيرة لا يستطيع عالم أمين أن يقررها معتمدا على حجة أو سند قويم

يجب على العالم الذى يجزم باستحالة الإلهام بالغيب أن يقرر لنا أنه عرف حقيقة الزمن وعرف – من ثم – حقيقة المستقبل ، ووجب عليه مع ذلك أن يقرر تجريد السكون من عنصر العقل غير عقل الإنسان والحيوان

فما هى حقيقة الزمن ؟ هل هو موجود فى الماضى والحاضر والمستقبل أو هو يوجد لحظة واحدة ثم يزول ؟ وما هى هذه اللحظة الواحدة ؟ وما مدى إحاطتها بالبعيد والقريب من الأمكنة الشاسعة فى هذه الأكوان ؟ وهل المستقبل موجود الآن أو هو عدم يوجد لحظة بعد لحظة ؟ وكيف يوجد العدم بعد أن لم يكن له وجود ؟

إن العالم الذى يجزم فى قول من هذه الأقوال باسم العلم يدعى على العلم كذبا وينم على عقل ضيق لا يصلح للنظر فى هذه الآفاق

فإذا كنا لا ننفى وجود المستقبل نفيا مقطوعا به مستندا إلى حجة أو بينة فالغيب غير مستحيل والعلم به لا يدخل فى باب الممنوعات أو غير المعقولات

وإذا كان عنصر العقل فى هذه الأكوان أكبر من أن يحصره رأس الإنسان وحده فانتقال المعرفة منه إلى عقل الإنسان جائز على الأقل كجواز الانتقال بين الأفكار على تباعد الأمكنة والعقول . ولا ندعى أن الانتقال الفكرى بين عقول الناس قد ثبت فى هذا الزمن ثبوتا قاطعا فى جميع التجارب والمحاولات . فإن هذا الانتقال – المسمى بالتلباثية – يصيب ويخطئ ويكفى أنه لم يبطل كل البطلان باعتراف الملحدين والماديين إلى جانب المتدينين والمؤمنين

فإذا كان وجود المستقبل لم يبطل فكيف يبطل العلم بما يجرى فيه ؟

إنه قد يبطل إذا تحقق بالبينة أن عنصر العقل وراء عقل الإنسان مستحيل ، فإذا كان وجود هذا العقل الأكبر لم يمتنع ولم يدخل فى باب المستحيلات فكل دعوى هنا للجزم بإنكار الغيب وانكار العلم به أو الايحاء به إلى إنسان من الناس فإنما هى دعوى تهجم على الواقع ولا يكفى أن يقال فيها إنها تهجم على الغيوب والمجهولات

فليكن رأينا إذن فى تخريجات الباحثين عن الطوالع والعلامات ما يكون ، فإن هذا الرأى لا يبطل الإيمان بالغيب إلا على لسان مجازف يخبط بالقول حيث يجهل المدى الذى يخوض فيه . وإنما نقبل تلك التخريجات أو لا نقبلها لأن الباحثين فيها أصابوا أو أخطأوا فى التخريج والتأويل ، وإنما نقبلها أو لا نقبلها كرة أخرى لأن قيام الدعوات النبوية متوقف عليها أو غير متوقف عليها بل ماض فى سبيله على اختلاف هذه العلامات

أما الإنباء فى الغيب بمشيئة العالم به والقادر عليه فلا يمنعه علم ولا منطق ولا تجربة قاطعة من تجارب العيان

الأحوال العالمية قبل الدعوة المحمدية

مقدمات النبوة

والآن ، وقد أقررنا الطوالع والعلامات فى قرارها الذى يسهل الاتفاق عليه ، نطرق الأبواب الواسعة التى تتفتح أمامنا للبحث فى مقدمات النبوة الإسلامية . وهى أبواب البحث فى الحوادث التاريخية والآيات الكونية . وليس أثبت منها فى مقام الكلام على النبوة الإسلامية بصفة خاصة بين سائر النبوات

تاريخ العالم كله – قبيل عصر الدعوة الإسلامية – هو تاريخ هذه المقدمات حول بلاد العرب وفى صميم الجزيرة العربية من أجوافها إلى أطرافها

فلم يكن للعالم كله فى تلك الفترة حالة لا توصف بالسوء ولا يقال فيها بالإجمال إنها حالة فساد وانحلال

فلا حالة للعلم ولا للسياسة ولا للأخلاق ولا للمرافق العامة لا توصف بتلك الصفة ولا تغلب فيها السيئات كل الغلب على الحسنات

وإذا نظرنا إلى الأحوال فى جملتها وجدنا أنها هى الأحوال التى تنادى فى كل مكان بالحاجة الى الدعوة الدينية

إن ظاهرة واحدة كانت تلف تلك الظواهر جميعا فى طياتها ، وهى

فقدان الثقة بكل شيء ، ولا معنى لذلك فى كلمة موجزة إلا أن الثقة هى المطلوبة . وأن الإيمان هو دواء هذا الداء الذى استشرى فى كل مكان

ونبدأ بالأديان الكبرى التى شاعت فى العالم المعمور قبيل الدعوة المحمدية ، وهى على حسب قدمها : المجوسية واليهودية والمسيحية

فلم يكن أتباع دين من هذه الأديان على استقرار فى عقيدتهم او على ثقة بأحبارهم وأئمتهم ، وأولها وأشدها اضطرابا ديانة الدولة الفارسية أو دياناتها المتعددة التى تشملها الثنوية أى الإيمان برب للنور ورب للظلام وعالم للخير وعالم للشر فى كون واحد

فقد كانت هذه المجوسية تستعصى على الدعاة المصلحين من أيام الوثنية الآرية الأولى التى اشترك فيها الهنود والفارسيون . وقد عمل « زرادشت » جهده لتطهيرها من الوثنية وإخلائها من شعائر الهياكل والمحاريب الخفية فلم يتيسر له من ذلك غير القليل . وجاء بعده مصلحون من أتباعه مزجوا الفلك بالتنجيم بالخرافة بالعبادة فى نحلة واحدة ، ولم يعرف الناس عنهم على البعد إلى عصر الميلاد المسيحى إلا أنهم رصدة للكواكب طلعة للخفايا والغيوب من وراء حجاب الظلام

وقام « مانى » الذى تنسب إليه المانوية فى القرن الثالث للميلاد فأراد أن يغلق باب الوثنية فى المشرق ويرجع إلى ثنوية قريبة من ثنوية « زرادشت » وتوحيد الفلسفة العقلية . فحول قومه من الكتابة البهلوية إلى الكتابة الآرامية أو السامية ، وكاد أن يفلح فى إقناع ولاة الأمر بآرائه فى الإصلاح والتنزيه لو لم تفسدهم عليه دسائس الكهان والوزراء ، فقضى فى السجن وقيل إنهم سلخوا جلده وعلقوه مصلوبا لسباع الطير

ثم كانت الطامة الكبرى فى عهد قباذ أبى كسرى أنوشروان الذى حضر بعثة النبى وتلقى رسالته بالسخط والوعيد . . .

ففى عهد قباذ هذا ظهر « مزدك » داعية الإباحة والفوضى فى الأموال والأعراض ، ولم يتزحزح هذا الداعية خطوة واحدة من الثنوية إلى التوحيد أو ما يشبه التوحيد . وقال كما قال « مانى » من قبله إن العالم كله فى قبضة إله النور وإله الظلام . غير أنه زاد عليه « إن النور يفعل بالقصد والاختيار وإن الظلمة تفعل على الخبط والاتفاق . وإن النور عالم حساس والظلمة جاهلة عمياء . وإن المزاج كان على الاتفاق والخبط لا بالقصد والاختيار ، وكذلك الخلاص إنما يقع بالاتفاق دون الاختيار »

وزعم مزدك هذا أنه جاء ليبطل الخلاف بين العقائد والأمم وينهاهم عن المباغضة والقتال ، وأنه لما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال فقد أحل النساء وأباح الأموال وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ . ورد القوى الكونية إلى أربع هى التميز والفهم والحفظ والسرور ، وكل منها يعمل بسبعة من الوزراء يتبع الوزير منهم اثنى عشر روحانيون . . . وكل إنسان اجتمعت له أسرار الأربعة والسبعة والاثنى عشر صار ربانيا فى العالم السفلى وارتفع عنه التكليف ، وإن ملك الملوك فى العالم العلوى إنما يدبر بالحروف التى مجموعها الاسم الأعظم ، ومن تصور من تلك الحروف شيئا انفتح له السر الأكبر ومن حرم ذلك بقى فى عمى الجهل والنسيان والبلادة والغم فى مقابلة القوى الأربع الروحانية[1] »

(١) الشهرستانى فى الملل والنحل .

ويقال عن مزدك هذا أنه كان عظيم الدهاء خبيرا بفنون الإقناع والإغراء ، وإنه بلغ من سلطانه على قباذ أنه أقنعه ببذل زوجته لمن يشتهيها ليعلم الناس الصدق فى إيمانه ويقتدوا به فى ترك التباغض والملاحاة على الأعراض والعروض فأوشك قباذ أن يفعل ما أوحاه إليه لولا أن علم ولى عهده كسرى فدخل عليه باكيا متضرعا يتوسل إليه إلا يذله هذا الإذلال ويبتذل أمه أمام الناس هذا الابتذال ، ثم تمالأت عصبة ولى العهد فقتلوه وتعقبوا شيعته بالقمع والتشريد

وعلى الرغم من تتابع المصلحين الذين اجتهدوا غاية اجتهادهم فى تطهير الديانة المجوسية من الوثنية والمراسم الهيكلية لم تزل عقيدتهم جميعا فى الأرواح والشياطين حائلا بينهم وبين التوحيد بل حائلا بينهم وبين الثنوية على بساطتها الاولى ، فإن موالاة الأرواح ومحاذرة الشياطين تسوقانهم إلى ضروب من العبادة والزلفى لطوائف شتى من الأرباب الصغار عدا الإلهين الأقدمين إله النور وإله الظلام ، ولا يزال المجوس إلى اليوم يبدءون صلاتهم بعد منتصف الليل ويقضون ساعات الصلاة الأولى فى تلاوة الأناشيد التى يسترضون بها شياطين الظلام ، قبل انبثاق النور الأعظم عند الصباح

اليهودية والمسيحية

أما اليهودية فقد كان قيام المسيحية فى معقلها الأكبر إيذانا حيا بنفاذها وانتهائها إلى الغاية من الجمود والضيق . إذ كانت المسيحية فى الواقع حركة إصلاح واسع فى جميع العقائد اليهودية التى جمدت على النصوص والمراسم وتحولت من الدين إلى نقيض الدين ، ولا شىء

يناقض الدين كما ناقضته تلك الأنانية القومية التى حسبت الإله المعبود ملكا لها دون سائر عباده يبيح لها فى سائر الأقوام مالا يباح فى شريعة ولا قسطاس مستقيم

وفى عصر الميلاد نفسه ظهر من حكماء اليهود من أحس الحاجة إلى إصلاح عقائد قومه وشعائرهم ، فاختار فيلون الحكيم أسلوب التعبير الرمزى لتفسير مسائل الكتاب التى لا تقبلها الحكمة ، وكان مما يلفت النظر فى هذا الصدد أنه رجع إلى قصة إبراهيم وسارة وهاجر فعبرها على أسلوبه تعبير الرموز . لأن المسلك الذى نسب فيها إلى إبراهيم لا يعقل من خليل الرحمن . فعنده أن سارة هى الحكمة الإلهية وأن هاجر هى الدربة الدنيوية . وأن زواج الخليل من سارة لم يثمر فى أول الأمر لأنه لم ينضج له قبل المرس بحقائق الحياة . وقد كان هذا أسلوب الفلسفة الذى أدخله بولس الرسول فى أسلوبه الدينى فقال فى رسالة غلاطية : « إنه مكتوب أنه كان لإبراهيم ابنان واحد من الجارية والآخر من الحرة . لكن الذى من الجارية ولد حسب الجسد ، وأما الذى من الحرة فبالموعد . وكل ذلك رمز . لأن هاتين هما العهدان أحدهما من جبل سيناء الوالد للعبودية الذى هو هاجر . لأن هاجر جبل سيناء فى العربية ، ولكنه يقابل أورشليم الحاضرة فإنها مستعبدة مع بنيها ، وأما أورشليم العليا التى هى أمنا جميعا فهى حرة . . . »

وهذه ثورة على تفسير موعد إبراهيم بأسلوب العصبية والأنانية تلفت النظر فيما نحن بصدده وتومئ إلى ما يأتى بعدها فى الزمن المتطاول . ثم سرى الإصلاح المسيحى مسراه فمضى معه من اليهود من صلح له وبقى الجامدون على شر مما كانوا عليه قبل الدعوة المسيحية ، وجنى العناد

والإصرار على الباطل جنايته المعهودة فذهب ريح الكهانة والمراسم الهيكلية وتفرقت مراجع الديانة مع كل مجمع وكل معبد وكل طائفة ذات مذهب فى التوراة أو التلمود أو تقاليد الأحبار والربانيين ، وكان من آثار هدم الهيكل سنة سبعين للميلاد أن أشياعه فقدوا وحدة المراسم بعد أن فقدوا وحدة العقيدة والروح . فلم يأت عصر البعثة المحمدية حتى استفحل الخطب بينهم من جراء تفسيراتهم الكثيرة فنهضت بينهم طلائع الطائفة التى عرفت بعد ذلك بطائفة القرائين وأنكرت كل رأى غير النصوص والحروف فى الكتب المنسوبة إلى موسى الكليم ، فكان خوف التفرق سبيل النكسة إلى أيام العصبية والأنانية القومية ولم يكن سبيلا إلى الحرية والتجديد . ومما يلفت النظر مرة أخرى أن إصلاح هذا الجمود الجديد إنما أتى من قبل البلاد الإسلامية على يد سعديا المصرى وابن ميمون الأندلسى . وأن حكماء اليهود فى القرن الثالث للهجرة لم يكن لهم مذهب فى تنزيه الإله غير مذهب علماء الكلام من المسلمين .

وكذلك كان يهود العالم فى عصر البعثة المحمدية بين أشتات يذهب كل منها مذهبه على حسب المجمع أو المعبد الذى ينتمى إليه ، وبين شراذم متعنتين فى الجمود على الحروف والنصوص يرجعون بهذه النكسة إلى الداء الذى قامت المسيحية لإصلاحه قبل بضعة قرون .

فتلك حاجة جديدة إلى إصلاح جديد .

محنة المسيحية

وقد جاء الإسلام والمسيحية منتشرة فى بلاد الدولة الرومانية شرقا وغربا يدين بها ملوكها ورؤساؤها ومعظم رعاياها ، وكان هؤلاء الملوك

والرؤساء قبل تنصرهم يضطهدون المسيحيين ويعذبونهم ولا يتورعون عن لون من ألوان العذاب يصبونه عليهم . فكانت محنة عظيمة صبر لها المسيحيون الأولون صبر المؤمنين الصادقين . ولكن هؤلاء الملوك والرؤساء كانت محنتهم للمسيحية بعد تنصرهم أشد عليهم من محنة الاضطهاد والتعذيب . لأنهم لم يكفوا عن الظلم وزادوا عليه عبث السياسة بالعقائد والآراء . فدسوا مطامعهم بين المختلفين على تفسير المسيحية الأولى وفرقوهم شيعا متباغضة متنافرة يرمى بعضها بعضا بالكفر والضلالة . ونشب بينها الجدل فلا تتفق على قول حتى تتفتح أمامها مذاهب الخلاف على أقوال ، ولم يكن خلاف المذاهب يومئذ كخلاف المذاهب فى العصر الحاضر يسمح بوجهات النظر ولا يستلزم طرد المخالفين جميعا من حظيرة الدين . بل كان بحث الآباء الأولين فى سبيل الوصول إلى أركان العقيدة وتقرير ما يسمى بالمسيحية وما لا يحسب منها وإنما يحسب من الكفر والضلالة . فلم تبق نحلة من النحل الكثيرة إلا حكمت على مناقضيها بالمروق والهرطقة ، وتعددت هذه النحل بين الأريوسية والنسطورية واليعقوبية والملكية على تباعد الأقوال فى الطبيعة الإلهية ومنزلة الأقانيم الثلاثة منها . ويأبى النزاع بين الكنيستين الشرقية والغربية فيقضى على البقية الباقية من الثقة والطمأنينة ، ولا يدع ركنا من أركان العقيدة بمعزل من الجدل والاتهام ، فلا جرم يتردد على الألسنة ويدون فى كتب التاريخ يومئذ أن القوم جميعا قد استحقوا العقاب الإلهى وأن أبناء إسماعيل قد جاءوا من الصحراء بأمر الله عقابا للظالمين والمارقين .

ويستطيع القارئ أن يترجم هذه البلبلة بحوادث السياسة ومنازعات

العروش فلا يرى من حوادثها يومئذ إلا زعازع من هذا القبيل على عروش الدول والإمارات وأولها عرش الأكاسرة وعرش القياصرة رؤساء أكبر الدول فى ذلك الحين ، فلم يكن بين الملوك الخمسة أو الستة الذين تعاقبوا على عرش فارس أو عرش بيزنطية من مات حتف أنفه أو مات مستقرا على عرشه ، ولم يكن منهم أحد كان له حق واضح فى السلطان على عرشه ، ولم يكن منهم أحد كان له حق واضح فى السلطان حين وثب عليه ، وينقلب العرش بين الغاصبين فيفزع من كان آمنا ويأمن من كان مهددا أو مشردا فى البلاد مع اختلاف الحظوة والنقمة بين الأنصار والخصوم ، فلما تمادى الأمر على ذلك عاما بعد عام لم يبق من يأمن على نفسه وماله فى زمن أنصار ولا زمن خصوم ، وعم الخوف أقرب الناس إلى السلطان وأبعدهم منه على حد سواء .

وتمت المحنة الكبرى بالقتال الدائم بين الدولتين ، فإذا بالبلد الواحد ينقلب فى الحكم بين سيادة الفرس وسيادة الروم فلا تهدأ له حال فى نظام ولا فى سلام ولا فى معاش يأمن الناس على مرافقه ومسالكه بين ميادين القتال . وبطل الأمان كما بطل الإيمان ، فلا خلاصة لهذه الأحوال جميعا غير خلاصة واحدة هى ضياع الثقة بكل منظور ومستور ، فلا أمان من السياسة ولا من الدين ولا من الأخلاق ولا من الواقع ولا من الغيب .

هذه أحوال العالم وهذه هى مقدمات الدعوة الإسلامية من تلك الأحوال : مقدمات لا تأتى بنتائجها على وتيرة الداء الذى يتبعه الفناء ، ولكنها مقدمات العناية الإلهية التى تدبر الدواء للداء المستحكم على غير انتظار وبغير حسبان . عالم إذا صح أن يقال عنه إنه كان ينتظر شيئاً من وراء الغيب فإنما كان ينتظر عناية من الله .

الجزيرة العربية قبل البعثة المحمدية

كان فى الجزيرة العربية مجوس ويهود ونصارى . وعرف أبناء الجزيرة هذه الأديان من طريق القدوة الفردية فى رحلاتهم ومبادلاتهم مع الأمم التى تحيط ببلادهم ، كما عرفوها من طريق الدعوة العامة التى يعززها سلطان الرؤساء على نحو ما حدث فى أرض غسان والحيرة ونجران .

ويقول ابن قتيبة إن المجوسية كانت معروفة فى قبائل تميم ومنهم زرارة بن عدس وابنه حاجب ، وقد تزوج ابنته ثم ندم . . . . ويرى أنها كانت شائعة بين قبائل البحرين عامة على مقربة من فارس . وأن لقيط بن زرارة – كما جاء فى ابن الأثير – تزوج بنته دختنوس وسماها بهذا الاسم الفارسى ومات عنها فقال وهو يجود بنفسه :

يا ليت شعرى عنك دختنوس ... إذا أتاها الخبر المرموس

أتحلق القرون أو تميس ... لا ، بل تميس إنها عروس

والأغلب على الظن أن المجوسية شاعت فى هذه القبائل لأنها كانت سهلة هينة عليهم لا تكلفهم بناء الهياكل ولا نحت الأصنام . ولا يتنكرون فى عبادتهم للنار شيئا لأن أشعال النيران للقرى والاستسقاء وإشهار الحلف لم تكن مجهولة فى البادية العربية ، ولعلهم سبقوها إلى

عبادة بعض الكواكب لأنهم كانوا أحوج إلى رصد الأنواء والاهتداء بالنجم فى سفر بين حتى جعلوا له اسما خاصا من السرى والإدلاج وغيرهما من الرحلة فى سائر أوقات الظلام

ولعل أحدا منهم لم يكن يلتفت إلى مجوسية المجوس إلا حين يحدث الزواج بالمحارم التى لا يحبها عامة العرب . فأما فيما عدا ذلك فقد كانت مراسم الدين عادات كغيرها من عادات البداوة فى الأعراس والمآتم وتعظيم الأسلاف والأرواح . لا ينكرها المجوسى ولا اليهودى ولا النصرانى من عرب الجاهلية

وإذا كان عرب البحرين قد عرفوا المجوسية فقد عرفوا الصابئين الذين كانوا يقيمون على مقربة من بلادهم ولكنهم لم يقتدوا بهم فى عقيدتهم لكثرة قيودها وشروطها وكتمان الصابئين ما كانوا يؤمنون به مخالفا لمن حولهم . وقد كانوا يوافقون كل دين فى أشياء ويخالفونه فى أشياء . ويجنحون إلى العزلة والاعتكاف فلا يصل إلى أسرارهم إلا من تعمد البحث عنها وتصدى إليها من طلاب المعرفة والمتنسكين والمتحنفين . والظاهر من أسلوب كتابتهم النبطية أن الصلة بينهم وبين نبط الحجاز الشمالى عن طريق العراق والعقبة كانت أوثق وأقرب من صلاتهم بسكان البحرين وشواطئ الجنوبية . ولهذا وجد فيهم من ينتمى إلى جد يسمونه كاشد بن تارح يزعمون أنه أخو إبراهيم الخليل . وكيفما كانت علاقة العرب بنوطن الصابئة فلم توجد بين العرب قبيلة كبيرة تدين بملة الصابئة كما دانت تميم بالمجوسية . لأن هذه الملة الصابئية بطبيعتها لا تنتقل إلى

طائفة كبيرة بعيدة من موطنها على موارد الماء . وإنما ينتقل بها فرد أو أفراد يفصلون عقيدتها عن العقائد الوثنية من حولها . ولا يخفى شأن الارتباط بالمكان فى العقيدة الصابئية . فإن اشتراط القرب من الماء فريضة من فرائضهم العامة . واسمهم الأول فى أصله مأخوذ من سبح لا من سبأ التى ينتمى إليها بعض قبائل اليمن ولا من صبأ بمعنى ارتد عن الدين . وذلك أرجح الآراء فيما قيل عن أصول هذه الأسماء

وكانت اليهودية أعم انتشارا فى الجزيرة العربية من المجوسية . لأن المجوسية بقيت محصورة فى عشائر من العرب من سكان بين البحرين . ولكن اليهود كانوا يهاجرون بجملة قبائلهم من أرض كنعان كلما أصابهم القمع والتشريد من فاتح جديد . وقد هاجر بنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل جملة واحدة إلى يثرب على رواية الأغانى بعد أن ظهرت الروم على بنى إسرائيل جميعا بالشام ،

قال صاحب الأغانى : « لما قدم بنو النضير وقريظة وبهدل المدينة نزلوا الغابة فوجدوها وبيئة فكرهوها وبعثوا رائدا أمروه أن يلتمس لهم نزلا سواها ، فخرج حتى أتى العالية – وهى بطحان ومهزور – واديان من حرة على تلاع أرض عذبة بها مياه عذبة تنبت حر الشجر فرجع إليهم فقال : قد وجدت لكم بلدا طيبا نزها إلى حرة يصب فيه واديان على تلاع عذبة ومدرة طيبة فى متأخر الحرة فتحول القوم إليها فى متزلهم فنزل بنو النضير ومن معهم على مهزور وكانت لهم تلاعه وما سقى من بعاث وسموات فكان ممن يسكن المدينة ، حتى نزلها الأوس والخزرج ، من قبائل بنى إسرائيل بنو عكرمة وبنو ثعلبة وبنو محمر وبنو زعورا وبنو زيد

وبنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل وبنو عوف وبنو القصيص فكان يسكن يثرب جماعة من أبناء اليهود فيهم الشرف والثروة والعز على سائر اليهود . . . وكان هناك معهم من غير بني إسرائيل بطون من العرب منهم بنو الحرمان حي من اليمن وبنو مرثد حي من بلي وبنو نيف حي من بلي أيضا وبنو معاوية حي من بني سليم ثم من بني الحارث بن بهثة وبنو الشظية حي من غسان » .

ولم ينزل اليهود بغير المدن والقرى التي تحميهم فيها الآطام والأبنية . فنزلوا تيماء وفدك وخيبر واشتغلوا بالتجارة والصناعة في المدن وزرعوا الأرض حولها للمرعى والاتجار بمحاصيلها . واختاروا من التجارة أيسرها على غير المحاربين لأنهم لم يقدروا على حراسة القوافل الكبيرة التي كانت تحمل أحيانا – كما جاء في الطبري – على أكثر من ألفي جمل . فاستغلوا المال وشاركوا في قروض الربا والوساطات ولم ينسوا قط أنهم غرباء في بلد غريب . واجتنبوا المزاحمة في التجارة فلم يكن لهم شأن بمكة دون سائر المدن لأنها كانت مستقلة بالتجارة على طريقها في أيدي قريش . ولكن يقال في روايات غير حاسمة أن بطونا من حمير وكنانة وكندة وبني الحارث عرفت اليهودية من جوارها لطريق المدن التي سكنها اليهود

وموضع النظر الكثير ما يقال عن دخول اليهودية إلى اليمن وقيام دولة يهودية فيها بأمرة ذرعة الملك بلقب نواس . فلا خلاف في وجود اليهود بين عرب الجنوب من أهل اليمن . ولكن الخلاف في تاريخ دخول اليهودية تلك البلاد ووسيلة دخولها . لأن المعهود في بني إسرائيل المتأخرين أنهم كانوا لا يدعون أحدا إلى دخول دينهم لإيثارهم أنفسهم

بوعد إبرهيم الخليل وحصر هذا الوعد في ذرية إسحاق بن يعقوب . وقد حدث في عهد هركانوس الأول المكابي أنه أغار على الأدوميين وإكرههم على التهود فتهودوا وقامت منهم دولة هيرود حليفة الرومان . وكان ذلك في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد حين ضعف ايمان اليهود برجعة الدولة الدنيوية إلى أرض الموعد . وكان تدبيرا حربيا سياسيا دعت إليه الرغبة في تأمين الطريق ومحالفة الرومان لدرء الخطر من ناحية فارس وحلفائها من جانب الصحراء . فإذا كان اليهود قد أكرهوا قبائل اليمن على التهود فمن أين لهم القوة التي تضارع قوة المكابيين في الشام وفلسطين ؟ وإذا كانوا قد هودوا تلك القبائل بالتبشير والإقناع فكيف قبلوا أن يشركوا معهم أناسا من المطرودين المحرومين في وعد إبراهيم الخليل ؟

إن الاحتمال الراجح بين هذه النقائض أن اليهود وصلوا إلى اليمن مهاجرين متفرقين . وربما بدأت هذه الهجرة من أيام السبي البابلي لقرب بابل من طريق البحرين إلى اليمن . فإن لم تكن موغلة هذا الإيغال في القدم فقد يكون مبدؤها عند تشتيت اليهود في أوائل القرن الثاني للميلاد . ثم استمرت نحو ثلثمائة سنة إلى أواخر الدولة الحميرية . ثم وجد اليهود الحميريون أنفسهم معرضين لخطر واحد امام تحالف الحبشة والروم ونصارى اليمن بنجران وغير نجران . فعقدوا الحلف المقابل لهذا الحلف بينهم وبين فارس وأعوانها من عرب الشواطئ الشرقية .

ومن المعلوم أن الدولة الفارسية كانت تنازع الحبشة والروم في أرض اليمن . وكانت ترحب في بلادها باليهود بعد انقلابهم على الدولة

الرومانية واشتهارهم بمعاداتها وموالاة أعدائها . وكانت ترحب بالنصارى الذين اضطهدهم الرومان الوثنيون . ولم تزل ترحب بعد ذلك بالنصارى من أتباع المذاهب التي وقع عليها التحريم والتشريد بعد تنصر العواهل الشرقيين في القسطنطينية . ولم تقبل نصارى الحيرة إلا لعلمها بمنافستهم لنصارى غسان من أتباع الرومان واتباعهم إلى مذهب النسطوريين .

فالدولة الحميرية على عهد ذى نواس لم تكن دولة يهودية يقبلها اليهود ويدخلونها معهم فى عداد شعب الله المختار . ولكنها كانت تحالف اليهود وتعمل على الاشتهار بمحالفتهم لإقناع فارس بولائها فى النزاع بينها وبين الحبشة والروم . واشتهرت من ثمة بالتهود لأنها أيدت اليهود وتنكرت للنصارى حذرا من معاونتهم — خفية أو جهرة — لشركائهم فى العقيدة أبناء الحبشة . ولو كان اليهود هم القوة التى قامت عليها دولة حمير لما صاروا إلى القلة التى غمرتها الكثرة العربية فى القرن الخامس للميلاد .

وأيا كان تاريخ اليهودية فى اليمن وفى بلاد العرب عامة فإنها لم تكن ذات رسالة دينية أو روحية للصلاح والإصلاح . ولم تكن يهودية معترفا بها بين بنى إسرائيل فى غير الجزيرة العربية . وقد نقل الدكتور إسرائيل ولفنسون صاحب كتاب « تاريخ اليهود فى بلاد العرب » رأيا فيهم ليهود دمشق وحلب رواه جريتز Graetz فقال : « إنهم كانوا ينكرون وجود يهود فى الجزيرة العربية ويقولون إن الذين يعتبرون أنفسهم من اليهود فى جهات خيبر ليسوا يهودا حقا إذ لم يحافظوا على الديانة الإلهية التوحيدية ولم يخضعوا لقوانين التلمود خضوعا تاما . وأن العالم شيركان يعتقد أن

اليهودية فى بلاد العرب كانت لها صبغة خاصة ، فقد كانت يهودية فى أساسها ولكنها غير خاضعة لكل ما يعرف بالقانون التلمودى »

ولا يمنع هذا أن يكون ليهود يثرب رأى فى أنفسهم غير رأى إخوانهم الدمشقيين والحلبيين . فقد روى أوليرى Oleary فى كتابه عن بلاد العرب قبل محمد « أن بنى النضير وبنى قريظة كانوا يسمون أنفسهم بالكاهنين ويزعمون من ثم أنهم من نسل هارون . وأما ياقوت فإنه يقول أن يهود يثرب عرب تهودوا . وقد يخطر لنا أن بنى قينقاع كانوا من عرب الشمال الأدوميين أو أشباههم الذين هاجروا إلى بلاد العرب بعد هدم الهيكل سنة سبعين أو بعد تشريد اليهود على عهد هادريان سنة مائة واثنين وثلاثين »

على أن الصبغة اليهودية التى بقيت مع يهود يثرب فى معيشتهم وصناعاتهم ومعاملاتهم ومعرفة بعضهم بالكتب العبرية القديمة ولياذهم بالآطام — أدل عليهم من تقديرات المؤرخين على الفرض والتخمين . وما أشبه قينقاع أن ترجع فى أصلها إلى كوهنكا ؟ وما أبعد اسم النضير من أسماء العرب الأقدمين ! . . لقد قيل إنهم بطن من بطون جذام من أبناء عم اللخميين . فهل كان فى جذام من يعرف العبرية كما عرفها يهود يثرب ؟ وهل كان فى وسعهم أن ينشئوا المدرسة العبرية التى ظلت إلى عصر الدعوة المحمدية يسميها العرب بيت المدارس ويسميها اليهود (بيت هام مدراس) ؟

وقد كان يحسب لهؤلاء اليهود أثر فى مقدمات الدعوة الدينية . أو مقدمات النهضة القومية الإنسانية بعبارة أخرى لو أنهم أفادوا العرب من

حولهم دروسا فى التفكير والأخلاق تكشف لهم عن سخف الجاهلية وتهيئ ضمائرهم لما هو أصلح منها وأقرب إلى التقدم والهداة . هذا أو تكون حياتهم بين العرب قدوة صالحة يقتدون بها فى معاملاتهم وعلاقة بعضهم ببعض فى السلم والحرب والمحالفة والمخالفة .

ولكنهم لم يصنعوا هذا ولا ذاك وصنعوا فى أكثر الأحيان نقيض هذا وذاك . لأنهم لم يكترثوا لأمر المتهودين من قبائل العرب إلا لينتفعوا بولائهم وحراستهم لتجارتهم فى الطريق . فلم يكن بين الجاهليين المتهودين والجاهليين الوثنيين فرق فى العادات والأخلاق إلا أن يكون فوق الشجاعة والرجولة فى جانب الوثنيين يمتازون به على الذين تعودوا اللياذ بالآطام والتعلق فى حربهم وسلمهم بذرائع المساومة والنفاق .

وقد كان يهود يثرب قدوة سيئة فى كل علاقة بينهم وبين العرب أو بينهم وبين أنفسهم فى جوار المدينة . فقد كانت سياستهم مع قبائل العرب قائمة على الإيقاع بينها وإثارة الأحقاد فى المتخاصمين كلما جنحوا إلى النسيان وتعاهدوا على الصلح والأمان . ولزم اليهود أنفسهم داؤهم القديم من الشقاق والمشاكسة حيثما اجتمعوا فى مكان واحد . فدبت الخصومة بين بنى قينقاع من جانب وبين بنى النضير وبنى قريظة من الجانب الآخر . ولم يتفق بنو النضير وبنو قريظة على شىء غير حسدهم لبنى قينقاع وعملهم على الوقيعة بين قبائل الأوس والخزرج وهى كثيرة فى جوار المدينة . وقد كانوا ينفسون على بنى قينقاع أنهم كانوا يقيمون فى قصورهم داخل المدينة ولا مأوى لبنى قريظة غير ضاحية المشرق ولا لبنى النضير غير ضاحية المغرب . فلما نشبت الحرب بين الأوس والخزرج تفرق

اليهود بين الحزبين فكان بنو قينقاع مع الخزرج وكان بنو النضير وبنو قريظة مع الأوس . ولم يتحرك أحد من النضيريين والقرظيين لنصرة بنى قينقاع حين أجلاهم المسلمون عن المدينة . ولا تحرك أحد من القرظيين لنصرة النضيريين حين قضى عليهم بالجلاء لغدرهم بالنبى عليه السلام وصعود أحدهم – عمرو بن جحاش – على جدار يجلس النبى تحته ليلقى عليه بصخرة من أعلاه ... وإنما وصفتهم الآية بوصفهم هذا حيث جاء فى القرآن الكريم من سورة الحشر أنهم « لا يقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون »

وليس فى خليقة من هذه الخلائق قدوة صالحة تعلم الجاهليين ما يحسن بهم أن يتعلموه ويهتدوا به إلى طريق مستقيم .

ولقد عاش يهود يثرب ما عاشوا فى جزيرة العرب ولم يؤثر عنهم قط سعى فى سبيل مطلب من المطالب العامة والخاصة غير الاستكثار من الربح المشروع وغير المشروع بكل ما استطاعوا من حول وحيلة . فلما جهر النبى بدعوته خذلوه من مبدأ الأمر وأوفدوا وفودهم إلى كفار قريش ، يعرضون عليهم المؤازرة والمحالفة واتخذوا خطتهم التى ثابروا عليها بعد ذلك ولم يعدلوا عنها إلى حين إجلائهم عن حدود الجزيرة ، وخلاصة هذه الخطة تثبيت الوثنية الجاهلية وإيثارها على دعوة التوحيد والتنزيه التى جاءت بها رسالة الإسلام وشملت بها معظم العقائد الكتابية وعقائد التوحيد جملة منذ عهد إبراهيم الخليل . وكان فى سعيهم للتأليب على هذه الدعوة بعض الأناة والحيطة قبل الهجرة النبوية إلى المدينة . لأنهم

كانوا يتراوحون في مساعيهم بين الحذر من عاقبة الدعوة وبين الأمل في القضاء على تجارة قريش وانفرادهم بعد قريش بتجارة الحجاز كله من اليمن إلى مكة إلى المدينة إلى الشام . فلما هاجر المسلمون القرشيون إلى المدينة وأقاموا لهم سوقا بجوار سوق اليهود أرادوا ان يفسدوا كل ما صنعه الإسلام حتى الصلح بين الأوس والخزرج والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار . واستيأسوا في الكيد والدس ولم يحرصوا على شيء غير استبقاء الربح والتأليب على كل إصلاح وكل مصالحة في غير هذا السبيل .

فإذا كان ليهود يثرب أثر في مقدمات الدعوة المحمدية فهو أثر أسوأ من أثر الجاهليين في المقاومة والعناد . وإذا استفاد الباحث من تاريخ هؤلاء القوم توضيحا لتلك المقدمات فإنما تأتى هذه الفائدة من جانب آخر لا فضل لهم فيه . فإنهم كانوا تصحيحا علميا لأخطاء المستشرقين الذين أنكروا وحدة اللغة العربية قبل الإسلام في عصر المعلقات والقصائد الجاهلية . ولقد كانت وحدة اللغة من مقدمات الدعوة الإسلامية التي خاطبت العرب جميعا بلسان يعرفونه من قبل عصر الإسلام . فجاء بعض المستشرقين بوهم من أوهامهم يشككون في وحدة هذه اللغة وينكرون اتفاق الجزيرة على التخاطب بلسان القرشيين والمكيين . وزعموا أن وحدة هذه اللغة ممتنع لاختلاف لسان العدنانيين والقحطانيين .

فاليهود في يثرب أصدق جواب على هذه الأوهام لأنهم غرباء عن الجزيرة العربية دخلوها في القرن الأول أو الثاني للميلاد . ولا يجوز الشك في ذلك ولا القول بأنهم عرب تهودوا كما قال بعض المؤرخين على

غير علم ولا روية فما يصح أن يقال ، فإن القول بذلك يستلزم منا أن نفرض أن العرب الأميين تطوعوا للتحول إلى اليهودية ثم تعلموا العبرية وتفقهوا في كتب التوراة لينقطعوا عن أسلافهم وينضووا إلى قوم مخذولين في بلادهم لا يسلمون لأحد من الأمم بأنه أهل للدخول معهم في عداد شعب الله المختار . فهذا من أغرب الفروض التي لا تثبت بغير دليل قاطع فضلا عن الثبوت بغير دليل . وليس في هجرة اليهود من فلسطين إلى بلاد العرب غرابة أو مناقضة لوقائع التاريخ بعد تشتيتهم في القرن الأول أو الثاني للميلاد . وقد كان مقامهم على الطريق بين تيماء والمدينة للتجارة والزراعة والاشتغال بغير صناعات القبائل العربية أشبه شيء أن يكون على تلك الطريق خاصة دون الطريق الأخرى التي يحميها النبط وقريش ولا يستطيع اليهود المهاجرون أن يقتحموها على أصحابها وهم مشردون مستضعفون . مع العداء بينهم وبين النبطيين وتعصب النبطيين على إسرائيل دينا ولغة وميلا في السياسة والولاء وعلى جميع هذه الفروض التي لا تقبل الشك تبقى هناك الحقيقة التي لا تختلف مع اختلاف القول في أصول يثرب وخيبر وفدك وتيماء ووادي القرى على الإجمال .

فهل هؤلاء عرب يكتبون ؟

لو كانوا كذلك لقد كانوا خلقاء أن يحفظوا في صحفهم كلاما عربيا مما قبل الإسلام بثلاثة قرون يخالف العربية الموحدة في عصر الإسلام . إن صح أن العربية لم تكن موحدة في أيام شعراء المعلقات . وبعض هؤلاء الشعراء لم يسبقوا عصر الإسلام بأكثر من مائة عام .

وكانوا خلفاء أن يحفظوا بالكتابة العبرية لهجة غير اللهجة الموحدة التي يشك المستشرقون في سبقها للإسلام إلى عصر أولئك الشعراء . أوكانوا خلفاء أن نعلم من كتابتهم شيئا يزيد ذلك الشك نوعا من التأييد .

أما إذا كانوا على القول الراجح – بل القاطع – يهودا دخلوا الجزيرة بلسان غير لسانها . وتكلموا الآرامية أو الأدومية أو العبرية ثم تعلموا اللغة العربية الحجازية فهذا التوحيد الذي تم بين اللغة الحجازية وبين الآرامية أو الأدومية أو العبرية ليس بالمستغرب أن يتم بين لهجة العرب في الجنوب ولهجة العرب في الحجاز وسائر أطراف الجزيرة . فقد أقام عرب اليمن في الجزيرة واتصلوا بالحجاز زمنا أطول جدا من مقام اليهود المهاجرين منذ القرن الأول أو الثاني للميلاد .

ولم يصل إلينا شيء من لغة اليهود الذين أقاموا بجنوب الجزيرة أو اليهود الذين تحالف معهم ذو نواس في نجران . ولكن اليهود الذين وفدوا إلى الحجاز بعد البعثة النبوية كان منهم كتاب ومؤرخون مطلعون على تواريخ حمير وتواريخ أسلافهم العبرانيين . وكان منهم كعب بن مانع الحميري الملقب بكعب الأحبار . وكان منهم وهب بن منبه الصنعاني الذي قال ابن خلكان أنه رأى كتابا له عن ملوك حمير وأخبارهم وأشعارهم في مجلد واحد ووصف هذا الكتاب بأنه مفيد . وقد كان كعب ووهب من المغربين في طلب النوادر فلم يذكرا لنا زمنا شهداه . أو شهده آباؤهم وأجدادهم كانت فيه لغة قريش مجهولة في اليمن وما جاورها . وأدنى من ذلك إلى عصر البعثة قدوم الوفود من اليمن إلى الحجاز وذهاب الولاة من الحجاز إلى اليمن بإذن النبي عليه السلام . ومنهم معاذ بن جبل وعلي بن أبي طالب ومن كان يصحبهما في عمل الولاية والتعلم . فلم نسمع أن وفود اليمن على النبي جهلوا ما سمعوه أو نطقوا بكلام لا يفهمه أهل الحجاز . وهؤلاء قد لقنوا لغاتهم من آبائهم فلا يفوتهم ما اختلف من كلامهم إذا كان ثمة اختلاف .

وأقدم من البعثة المحمدية رحلة الصيف ورحلة الشتاء . وليس في أخبار هذه الرحلات إلماع إلى تفاهم قريش مع أهل اليمن بلغة غير اللغة القرشية في الجيل السابق للبعثة والجيل الذي تقدمه . ومن البعيد جدا ان يغيب عن ذاكرة العربي حديث جيلين قبل جيله وقد كانت أخبارهم ورواياتهم وأنسابهم وأمثالهم كلها قائمة على الحفظ وتسلسل الرواية والإسناد من جيل إلى جيل . فإذا كانت لغة الحجاز شائعة عامة على مدى الذاكرة في عصر البعثة المحمدية فلا أقل من ثلاثة أجيال تقدر لهذا الشيوع وهذا التعميم . وترجع بنا هذه الأجيال إلى أقدم الأوقات التي أسند إليها نظم المعلقات فلا نستغرب نظمها باللغة التي يفهمها العرب من الجنوب إلى الشمال .

ولقد سمع النبي عليه السلام قصيدة كعب بن زهير . وقد نظمها ولا شك بلغة أبيه زهير بن أبي سلمى . وكان زهير من أسرة شاعرة مسبوقا إلى النظم بتلك اللغة . ولا يعقل أن يكون التغير في النظم قد طرأ عليهم فجأة في مدى سنوات معدودات . فإذا بلغنا بالمعلقات عصر هرم بن سنان – ممدوح زهير – وما تقدمه بقليل فليس من شعراء المعلقات من هو أقدم من ذلك بزمن طويل يمتنع فيه التوافق على النظم الواحد واللغة الواحدة . ولا بد أن نذكر هنا أن أوزان العروض لا تحقق

بين يوم وليلة . وأن وزن قصيدة كعب ووزن قصيدة أبيه قد وجدا قبل عصر الشاعرين ونظمت فيهما قصائد جيل أو جيلين على الأقل قبل ذلك التاريخ ، ولو أن هذه الأوزان وسعت شعرا غير شعر اللغة الحجازية لما غاب خبره ولو غاب لفظه ومبناه .

ومن عسف القول ولا ريب أن نجزم بامتناع هجرة اليمانية إلى ما وراء حدود اليمن في الجزيرة العربية ، فإذا جاز أن تهاجر منهم قبيلة واحدة فحكم القبيلة في مسألة اللغة كحكم القبائل العشر أو العشرين . ولمن شاء أن ينكر نسبة البكريين أو التغلبيين أو الغساسنة إلى اليمن مستندا إلى الدليل أو غير مستند إلى دليل على الإطلاق ، ولكنه لا يستطيع أن ينكر نسبتهم إلى اليمن وينكر نسبة اللغة العدنانية إليهم في وقت واحد ، فإنه بذلك ينكر نسبتهم إلى كل أصل معروف في الجزيرة العربية ولا يأتي لهم بأصل غير تلك الأصول .

وأن من ينكر انتقال قوم من اليمن إلى ما وراءها لينكر أمر غير قابل للإنكار في الجزيرة العربية التي لم يثبت فيها تاريخ أثبت من تواريخ الرحلات على تباعد الأزمنة وتبدل العوارض الجوية وطوارئ الخصب والجدب والغلبة والهزيمة . وما من باحث ذي روية يعتسف البت بذلك الإنكار ثم يجزم بحصر اليمانية في حدودهم منذ احاطت بهم تلك الحدود . فمن العسف أن يقال إن اليمانية لم تبرح اليمن قط في العصور التي سبقت البعثة المحمدية ، وليس من العسف في شيء أن يقال إنها برحتها على حسب الطوارئ وعوامل الجو والتاريخ ، ولا داعية بعد ذلك لاستغراب التوافق بين اليمانية وأبناء الحجاز وتهامة وسائر الجزيرة في لهجة

من اللهجات . فما دمنا نقدر بحكم البداهة أن اليمانية وجدوا في الجزيرة العربية وراء حدودهم وتكلموا كما يتكلم المقيمون في جوارهم فقد زالت المشكلة ولم تكن هنالك في الحقيقة مشكلة تزال .

وليس أكثر من العسف الذي يلجأ إليه منكرو الوحدة في لغة الجزيرة قبل البعثة المحمدية بجيلين أو ثلاثة أجيال . وأن اعتساف التاريخ هنا لأهون في رأينا من اعتساف الفروض الأدبية التي لا تقبل التصديق ، فما من قارئ للأدب يسيغ القول بوجود طائفة من الرواة يلفقون أشعار الجاهلية كما وصلت إلينا ويفلحون في ذلك التلفيق . إذ معنى ذلك « أولا » أن هؤلاء الرواة قد بلغوا من الشاعرية ذروتها التي بلغها امرؤ القيس والنابغة وطرفة وعنترة وزهير وغيرهم من فحول الشعر في الجاهلية . ومعنى ذلك « ثانيا » أنهم مقتدرون على توزيع الأساليب على حسب الأمزجة والأعمار والملكات الأدبية . فينظمون بمزاج الشاب طرفة ومزاج الشيخ زهير ومزاج العربيد الغزل امرئ القيس ومزاج الفارس المقدام عنترة بن شداد . ويتحرون لكل واحد « مناسباته » النفسية والتاريخية ويجمعون له القصائد على نمط واحد في الديوان الذي ينسب إليه ، ومعنى ذلك « ثالثا » أن هذه القدرة توجد عند الرواة ولا توجد عند أحد من الشعراء ثم يفرط الرواة في سمعتها وهم على هذا العلم بقيمة الشعر الأصيل ، وما من ناقد يسيغ هذا الفرض ببرهان فضلا عن إساغته بغير برهان ولغير سبب إلا أن يتوهم ويعزز التوهم بالتخمين ، وإن تصديق النقائض الجاهلية جميعا لأهون من تصديق هذه النقيضة التي يضيق بها الحس ويضيق بها الخيال .

وشتان – مع هذا – النقائض التي يستدعيها العقل ويبحث عنها إذا

تفقدها فلم نجدها ، والنقائض التى يرفضها العقل ولا موجب لها من الواقع ولا من الفكر السليم .

فهذه النقائض التى تحاول أن تشككنا فى وحدة اللغة العربية قبل الإسلام يرفضها العقل لأن قبولها يكلفه شططا ولا يوجبه بحث جدير بالإقناع .

فما يتكلفه العقل إذا تقبلها أن يجزم – كما تقدم – بانقطاع عرب اليمن عن داخل الجزيرة كل الانقطاع ، وأن يجزم ببقاء لغة قحطانية تناظر اللغة القرشية فى الجيلين السابقين للبعثة المحمدية غير معتمد على أثر فى ذاكرة الاحياء ولا فى ورق محفوظ ، وأن يلغى كل ما تواترته العرب عن أنسابهم وأسلافهم وهم أمة تقوم مفاخرها وعلاقاتها على الأنساب وبقايا الأسلاف ، وان يفترض وجود الرواة المتآمرين على الانتحال بتلك الملكة التى تنظم أبلغ الشعر وتنوعه على حسب الأمزجة والدواعى النفسية والأعمار ، وأن يفهم أن القول المنتحل مقصور على الأسانيد العربية مبطل لمرجعها دون غيرها من مراجع الأمم التى صح عندها الكثير مما يخالطه الانتحال والكذب الصريح .

ومن النقائض التى يستدعيها العقل ويستلزمها ويتخذ منها حجة الثبوت الواقع فى جملته أن يحدث الاختلاف فى الرواية وان يتعذر فيها الإجماع بين الرواة ، فإن العقل لا يصدق الأقاويل التى يتفرق رواتها ويطول العهد عليها ويعول عليها أصحابها على الذاكرة والإسناد ثم تأتى متفقة فى الجملة والتفصيل ولا تتعرض مع الزمن وعوامل الأهواء للاضطراب والحذف والإضافة عن قصد أو بفعل النسيان والإهمال .

فاختلاف الرواة إذن سبب من أسباب التصديق ، واتفاقهم يدعو إلى الشك أو التكذيب .

وقد نسمع النقيضين فى هذه الحالة فنرفضها ولا نرفض لباب الخبر ومغزاه . فقد سمعنا ان عمرو بن كلثوم أو الحارث بن حلزة ألقى قصيدته فى وقفة واحدة ، وسمعنا أن زهير بن أبى سلمى كان ينظم قصيدته فى الحول وتسمى قصائده من أجل ذلك بالحوليات ، وقد تسقط هذه المبالغة كما تسقط تلك ولا يلزم من ذلك أن تسقط الشعر الذى يرغ فى وقت نظمه بين أقصى الطرفين .

وربما وقفنا على روايتين نصدقها الآن عند النظر إلى الحقائق العصرية ونعلم أن تلفيقهما فى الزمن الماضى حد عسير ولو أراده الملفقون ، فما يروى عن امرئ القيس أنه تعجب من إعراض النساء عنه مع وسامته ومكانته . وسأل إحدى النساء فى ذلك فقالت له : نعم ، ولكن لك عرقا كأنه عرق كلب . ثم نقرأ أخبار وفاته فنعلم منها إنه أصيب قبل موته بقروح تسقط منها جلده وسمى الحلة التى كان يلبسها من أجل ذلك بذات القروح ، ومؤدى الروايتين معا أن الشاعر كان على استعداد للمرض الجلدى لفساد رائحة العرق الذى يفرزه ، وأنه لم يزل حتى استشرى به الفساد فى رحلته القصية فظهر فى تلك القروح ، ويقترن ذلك بنوادره مع النساء المعرضات عنه وغلبة الشاعر علقمة عليه فى عينى امرأته . فلا يسهل على المناظر فى جميع هذه الأخبار أن ينسب تلفيقها عمدا إلى رواية واحد ، ولا يسهل عليه أن يتلقاها متفرقة ثم يجردها من الدلالة التى تربط بينها على غير علم من الرواة المتفرقين .

وربما كذب الكثير من أخبار طرفة ولم نكذب قصيدته التى تنم فى جملتها على خلائقه التى تنوب عن تلك الأخبار وتغنينا عن محاسبة الرواة على التصديق أو على التكذيب .

وهذه القرائن الأدبية هى التى يغفل عنها المستشرقون ولا يفطنون لها لأنهم ينظرون فى النصوص والإسناد ولا ينظرون فى الأدب ولا فى روح الكلام ومضامين التعبير ، ومنهم من لا يعرف أدب بلاده ولا يحسن الحكم عليه وهو أدب اللغة التى تلقنها فى حجر أمه ، فليست معرفته باللغة العربية كافلة له أن يحكم على آدابها وأساليبها ومضامين الكلام على تعدد الأمزجة والأذواق ، ومنهم علامة تصدى لوضع المعجمات الكبرى فى اللغة العربية فكتب فى مادة « أخذ » أنها تأتى بمعنى نام لقوله تعالى : « لا تأخذه سنة ولا نوم » . . . ومنهم من يترجم « أبا بكر » بأبى العذراء لأنه كان والد الزوجة التى بنى بها النبى عليه السلام وهى عذراء . ومنهم من يترجم الصعيد بمصر الميمونة أو مصر السعيدة Egypt Felix قياساً على اليمن التى تسمى العربية السعيدة Arabia Felix

ومنهم من يقول إن التضحية تدل على عبادة الشمس لأنها من الضحى . . . وما هى فى وضعها إلا كالتغدية من الغداة والتعشية من العشاء والسحور من السحر إلى غير ذلك من توقيت الوجبات والذبائح بميقاتها من الليل والنهار . . . ومنهم من يحسب أن القصيدة من القصد فيترجمها بالكلام الذى يراد معناه !

وقد تصدت منهم لهذا البحث الذى نحن فيه عن اللغة قبل نزول القرآن طائفة تقتحم هذه المباحث وهى أجهل بآلاتها من عامة الأميين.

فالدكتور سنكلر تسدل Thusdale صاحب كتاب مصادر الإسلام يروى شبهات الناقدين للقرآن الكريم ، ومنها هذه الأبيات :

دنت الساعة وانشق القمر   عن غزال صاد قلبى ونفر
أحور قد حرت فى أوصافه   ناعس الطرف بعينيه حور
مر يوم العيد فى زينته   فرمانى فتعاطى فعقر
بسهام من لحاظ فاتك   فتركنى كهشيم المحتظر

ويتخذ منها قرينة اقتباس القرآن بعض الآيات من أشعار الجاهليين

ويضيف الدكتور العلامة إلى هذه الأبيات أبياتاً أخرى كقول القائل :

أقبل والعشاق من خلفه   كأنهم من حدب ينسلون
وجاء يوم العيد فى زينة   لمثل ذا فليعمل العاملون

قال الدكتور : « ومن الحكايات المتداولة فى عصرنا الحاضر أنه لما كانت فاطمة بنت محمد تتلو هذه الآية وهى – اقتربت الساعة وانشق القمر – سمعتها بنت امرئ القيس وقالت لها إن هذه القطعة من قصائد أبى أخذها والدك وادعى أن الله أنزلها عليه ، ومع أنه يمكن أن تكون هذه الرواية كاذبة لأن امرأ القيس توفى سنة ٥٤٠ م ولم يولد محمد إلا فى سنة الفيل أى سنة ٥٧٠ م فلا ينكر أن هذه الأبيات المذكورة واردة فى سورة القمر وفى سورة الضحى وفى سورة الأنبياء وفى سورة الصافات ، وغاية الأمر أنه يوجد اختلاف طفيف فى اللفظ ولبس فى المعنى ، فورد فى القرآن اقتربت وفى القصيدة دنت . . . ومن البين الواضح أنه

يوجد مناسبة ومشابهة بين هذه الأبيات وبين تلك الآيات الواردة فى القرآن . فإذا ثبت أن هذه الأبيات هى لامرئ القيس حقيقة فحينئذ يصعب على المسلم توضيح كيفية ورودها فى القرآن لأنه يتعذر على الإنسان أن أبيات شاعر وثنى كانت مسطورة فى اللوح المحفوظ قبل إنشاء العالم !

ثم قال الدكتور يطالب العلماء المسلمين مع المعترضين والمشتبهين بأن يقيموا الدليل على أن هذه الآيات مأخوذة ومقتبسة من القرآن وأنها ليست من نظم امرئ القيس الذى توفى قبل مولد محمد بثلاثين سنة ولكن يصعب علينا أن نصدق بأن ناظم هذه القصائد بلغ إلى هذا الحد من التهتك والاستخفاف والجرأة فى أى زمن من الأزمان بعد تأسيس مملكة الإسلام التى كانت متسعة الأطراف والأكتاف حتى يقتبس آيات من القرآن ويستعملها فى مثل هذا الموضوع » .

ثم يختم الدكتور كلامه فى هذه الشبهات مصطنعا الحذر والحيطة لئلا يثبت نظم هذه الأبيات بعد الإسلام فتسقط الشبهة كلها . فيقول إن هذه الأبيات ليست كل ما يعترض به المعترضون . لأن ما تقدم من الأسانيد كاف عندهم لتأييد هذه القضية [1] .

وأيسر ما يبدو من جهل هؤلاء الخابطين فى أمر اللغة العربية قبل الإسلام وعلاقتها بلغة القرآن الكريم — أنهم يحسبون أن علماء المسلمين يلفون فى بحث تلك الأبيات وصباً واصباً لينكروا نسبتها إلى الجاهلية

(١) من صفحة ٢٥ إلى صفحة ٢٩ من الترجمة العربية .

ولا يلهمهم الذوق الأدبى أن نظرة واحدة كافية لليقين وبإدحاض نسبتها إلى امرئ القيس أو غيره من شعراء الجاهلية

وهذه النظرة الكافية هى التى تعيى الناقدين المستشرقين وهى أصل وثيق من أصول النقد يعول عليه الناظر فى الأدب كل التعويل ، ولا يقدح فيه أن يتسع للجدل وأن يجوز عليه الخطأ فى القليل دون الكثير

كذلك يتسع سبيل الجدل فى إنكار خبرة الخبير بكتابة الخطوط . وكذلك يجوز الخطأ فى محاكاة الكلمة أو بضع كلمات ولا يجوز فى السطور والصفحات

فإذا نظر خبير الخطوط فى صفحة من الصفحات فقد تغنيه نظرة فى الحكم عليها بالصحة أو التزييف ، وربما جاز عليه أمر الكلمة والكلمات إذا لم يكن أمامه غير هذه الكلمة أو هذه الكلمات للمقابلة والمضاهاة . ولكنه إذا حصل على تلك الكلمة المكتوبة عشر مرات أو عشرين مرة لم يكن من اليسر أن ينخدع فيها كما ينخدع فى الكلمة المفردة بغير تكرار ، وعلى هذا المنوال يبدو الصحيح والزيف فى الشعر الأصيل والشعر المدخول ، وقد يجوز التزوير فى الشطرة الواحدة أو البيت الواحد إذا امتنعت المقارنة بينه وبين أمثاله من تلفيق صاحب التزوير ، ولكنه لا يجوز إذا كرر المزور الأبيات ومثلت للناظر الناقد طريقته فى تزوير هذه الأبيات المتفرقات .

تزوير الأدب الجاهلى مستحيل

أما المستحيل ، أو شبه المستحيل ، فهو تزوير أدب كامل ينسب إلى الجاهلية ويصطبغ فى جملته بالصبغة التى تشمله على تباين القائلين

والشعراء ، فإذا جمعنا الشعر المنسوب إلى الجاهلية كله فى ديوان واحد فمن المستحيل أو شبيه المستحيل أن نجمع ديوانًا يماثله من كلام العباسيين أو كلام المتأخرين ، وإذا قل الفارق بين الشعر الأموى الأول والشعر الجاهلى فتلك آية على صحة العلامات التى تميز الشعر الجاهلى وعلى صحة القرابة بينه وبين الشعر الذى لم يفترق عنه افتراقا بعيدا بزمانه وثقافة قائليه وبيئاتهم فى المعيشة ومناسبات التعبير . فلا يتشابه الشعر الجاهلى والشعر المخضرم ، إن لم يكن بينهما ميزان مشترك ، مع انتمائه إلى عشرات الشعراء الجاهليين والمخضرمين

إن الملامح الشخصية التى تميز بين الفرزدق والأخطل وجرير لم يكن لها ثبوت أوضح وأقوى من ثبوت الفوارق التى تميز بين امرئ القيس وعمرو بن كلثوم وزهير ، فمن يرى أن خلق دواوين الفرزدق والأخطل وجرير فى وسع راوية واحد فقد سهل عليه أن ينسب شعر الجاهليين جميعا لا سند له ولا سابقة من مثله فى آداب الأمم ولا نصيب له من الذوق الأدبى غير النبو والاستغراب

وربما كان « سنكلر تسدبل » الذى مثلنا به لجهل المستشرقين باللغة والذوق الأدبى مثلا صارخا كما يقال فى التعبير الحديث ، ولكن المثل الصارخ هو الذى يبرز الحقيقة مستعصية على اللبس والمكابرة ويحيط بما دونه من الأمثلة التى تتردد بين الشك واليقين ، وقد أتينا على طائفة منها لا تتخلف عن المثل الصارخ بشوط بعيد

سوء فهم وسوء نية

والمعهود فى جماعة المستشرقين أن الكثيرين منهم يقرنون سوء الفهم وسوء النية لأنهم يخدمون سياسة المستعمرين أو سياسة المبشرين المحترفين

أو ينظرون فى بحوثهم نظرة الغربى الذى ينظر إلى الشرق نظرة المتعالى عليه فى حاضره وماضيه . غير أنهم ماعدا القليل منهم محدودون سطحيون يحومون حول المسائل الحسية ولا يتوسعون فى النظر أو يتعمقون وراء الظواهر التى يلمسها شاهد الحس لمسا فلا تخرج عنده من حدود ما يثبته أو ينفيه من وقائع العيان والسماع

فغاية ما يقصدون إليه من أمر اللغة أنهم يلتمسون الإسناد المعتمد عند أهلها فيأخذونها بالشك والتجريح . وأنهم يهدمون الدعائم القائمة ليستجيزوا بعد ذلك كل ادعاء يدعونه وكل إنكار ينكرونه من أصول اليقين والاطمئنان . وتشكيكهم فى أسانيد اللغة من هذا القبيل لا يعدوه إلى مطلب بعيد من مطالب الإحاطة والاستيعاب . فهو كالمنازع الذى ينكر على صاحب الدار وثيقته ولا يعدوها إلى أركان الدار وما فى الدار . وتقديرهم لمسألة الشك فى وحدة اللغة أقل جدا من قدرها الصحيح فى مقدمات الدعوة المحمدية ، إذ هى أصلح هذه المقدمات للدلالة على ما بعدها ، وأصدق فى التمهيد لنتائجها من مقدمات السياسة والأحداث الاجتماعية ، لأنها المقدمة الوحيدة التى تمشى فى طريق الدعوة المحمدية مساوقة لها مترقبة لأوانها . ولا تكون الدعوة المحمدية بالنسبة إليها كأنها رد الفعل الذى يقاوم ما قبله ويجرى معه مجرى النقيض من النقيض

الفخر باللسان العربى

إن الشعور بالعربية والفخر باللسان العربى مقدمة لابد منها للدعوة التى تواجه العرب بآية البلاغة فى القرآن الكريم . وتروعهم بالمعجزة التى يحكونها إن استطاعوا أو يحسبونها من قدرة الله

مثل هذا التحدى بالبلاغة لا يحدث فى أمة لم تتأصل فيها مفخرة اللسان العربى والوحدة العربية جيلين أو ثلاثة أجيال . ولابد – مع ذلك – أن تكون فتحا قريبا أو شعورا فتيا لم يتطاول عليه العهد مئات السنين ولم تذهب روعته بالألفة وفتور النسيان

ووحدة اللغة القرشية أو الحجازية لا تصبح من مفاخر العرب جميعا كرامة لقريش أو لأرض الحجاز . ولكنها خليقة أن تسرى الى نفوس العرب من حيث يشعرون بالعروبة الموحدة عالية الرأس غير مستكينة لسلطان من « العجم » على الخصوص

والكعبة هى الجوار الوحيد الذى يشعر عنده العرب هذا الشعور

فهم فى الشام رعايا دولة الروم . وهم فى الحيرة رعايا دولة الفرس . وهم فى اليمن أتباع للحبشة أو لفارس أو رعايا لسلطان يدينهم بالمذلة كما يدينهم الملوك الغرباء

ولكنهم عند بيت الله فى حرم الله يقدسونه جميعا لأنه لهم جميعا يضمهم إليه كما يضم أوثانهم وأصنامهم وأربابهم الذين يلوذون ويأوون إليه ، فكلهم من معبود أو عابد فى حمى من الكعبة لأنهم فى بيت الله

وشعورهم هنا بأنهم « عرب » لم يماثله شعور قط فى أنحاء الجزيرة العربية ، وقد أوشك أن يشمل شعب اليمن وجمهرة أقوامه على الرغم من سادته وحكامه ، فما كان هؤلاء الحكام لينفسوا على الكعبة مكانها ويقيموا لها نظيرا فى أرضهم لو كان شعب اليمن منصرفا عنها غير معتز بها كاعتزاز البادية والصحراء

وحدة الكعبة

وقد وافق ذلك زوال عرش الحيرة وزوال عرش حمير واستكانة الغساسنة فى الشام تارة للروم وتارة للفرس بلا ولاء لهؤلاء ولا لهؤلاء ، ولا بقية من الفخر لهم غير أنهم عرب وليسوا من هؤلا ولا هؤلاء

وأن إبقاء الإسلام على مكانة الكعبة لدليل على هذه المكانة ودليل على حكمة الإسلام فى الاحتفاظ بها للعالم الإسلامى وفى متسعه العميم بعد عالمه الأول فى الجزيرة العربية

ونكاد نقول إن العرب أقبلت على الإسلام أفواجا حين صارت الكعبة إلى يديه وأصبحت عاصمة العروبة عاصمة للدين الجديد

ولو لم تكن للعرب وحدة معروفة بينهم قبل البعثة الإسلامية لما اعتزوا بالبيت الجامع لهم هذا الاعتزاز ، وما وحدة أقوام متقاتلين متنازعين مأخوذين بعصبية الأجداد والعشائر إن لم تكن وحدة اللغة ووحدة الفخر بلسان مبين يتيهون به على « العجم » أجمعين ؟

قال سترابون إنه وجد الأقوام فى بلاد العجم تتفاهم بلغة واحدة ، وهى بلاد تعاقبت عليها سلالات الآريين والطورانيين والساميين . ويقال فى روايات شتى إن الحاميين وصلوا إليها فى زمن قديم كما كانوا يصلون إليها ويتجمعون فيها بعد الإسلام بعد قرون ، ولم تكن عوامل الوحدة اللغوية بينهم أقوى من عواملها فى جزيرة العرب ، ولم يمض عليهم من الزمن ممتزجين متقاربين أكثر مما مضى على القبائل العربية التى من عادتها الرحل والانتقال من مرعى إلى مرعى ومن جوار إلى جوار

وفى زماننا هذا – من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين – لا نرى أحدا يستغرب تخاطب القوم فى جزائر البريطان بلغة واحدة وفيهم الأيرلنديون والأيقوسيون والغاليون . وفى كل أمة من هذه الأمم خطباء مفوهون وشعراء مشهورون يحسنون الانجليزية منظومة ومنثورة وفى مجامع الخطابة والبيان . ولا نرى احدا يستغرب ذلك فى بلاد الإسبان ومنهم القشتاليون والباسكيون . ولا نرى فى مصرهنا من يستغرب البيان العربى الفصيح إذا نسب إلى فئة من أبناء النوبة وهم يتفاهمون فى الأقليم النوبى برطانة لا يفهمها سائر المصريين ، فلا موجب لإنكار النظم والكلام بلغة واحدة فى جزيرة العرب قبل البعثة المحمدية بمائتى سنة أو أكثر من ذلك مع عجز المنكرين أن يأتوا بشاهد من اللغة الأخرى التى يفترضونها وينكرون توحيد اللغة من أجلها . ومع توافر الأسباب الموحدة فى جزيرة العرب على نحو لم يعهد فى غيرها من بلاد الزمن القديم . ولا تكفى كلمة أو كلمات للحكم بانفصال اللغات . فإن الإقليمين فى قطر واحد لا يتفقان فى جميع الكلمات

فمن التاريخ الثابت أن أبناء الجنوب لم ينقطعوا عن الشمال ولم تزل لهم آثار مكتوبة فيها إلى الآن . وقد وجدت بعض هذه الآثار بالخط الجنوبى واللغة الشمالية مما يدل على تشابه الكلام والنطق مع بقاء الكتابة بخط الجنوب

وحدثت فى تاريخ الجنوب حوادث متعاقبة نقلت زعامة الشمال إلى الشماليين وجعلت أهل الجنوب تبعا لهم كلما وفدوا على الشمال . وذلك بعد قيام الدولة النبطية التى ازدهرت فى القرن الرابع للميلاد وتغلغل

روادها وتجارها فى الغرب كما ظهر من بعض نقوشهم فى بحر يجة وفى إيطاليا الجنوبية

وقد كان من اسباب ضعف الجنوب وقيام دولة النبط فى الشمال اضطراب بلاد اليمن بعد حروب الإسكندر واجتياحه لدولة فارس التى كان لها الإشراف على حكومة اليمن وتجارة الهند والشرق عامة فى الأقطار العربية . وبعد انهيار سد مأرب وانتشار القراصنة فى خليج العجم وبحر العرب والبحر الأحمر . فغلبت طريق القوافل التى تمر بالحجاز على جميع الطرق الأخرى وتقاربت الصلة بين النبط والحجازيين وأخذ الحجازيون بالخطة الوسطى التى تلتقى عندها سبل الجنوب والشمال والشرق والغرب فى كل بقعة عربية لم تكن للفرس حماية عليها . واشتعلت الحروب بين المخميين على خليج العجم والغساسنة فى بادية الشام فانحصر الأمان أو كاد على طريق الحجاز . واحتاج النعمان بن المنذر – صاحب الحيرة – إلى زعماء مضر لحماية تجارته داخل الجزيرة إلى مكة . فكان من أسباب يوم نخلة أنه أراد رجلا يجيز قوافله على أهل نجد فتنازعها البراض وعروة الرحال سيد هوازن ، وقال له هذا إنه يجيزها على أهل الشيح والقيصوم فى اهل نجد وتهامة . ثم نشبت الحرب فاحتكم الجميع أخيرا إلى سيد من سادات مكة عبد الله بن جدعان

وانقضت عدة قرون على اتصال النبط والحجاز ، وعمل الحجازيون على تعظيم شأن الحجاز بين النبطيين فوضعوا فى الكعبة تماثيل أرباب يعبدها النبطيون يعد منها الرواة هبل واللات ومناة التى قيل إنها من « المنية » بمعنى « القدر المقدور » معبود النبطيين ، وقولهم حانت منيته وحان قدره معنى واحد عند عباد مناة

ولا شك أن قصة « عمرو بن لحى » الذى اتفقت الأخبار على أنه نقل الأصنام من بلاد النبط إلى الكعبة إنما هى وسيلة من وسائله لتعظيم شأن الكعبة عند أهل الشمال وإيناسهم بها كلما رحلوا إلى الحجاز وتقريب ما بينهم وبين شعائر البيت الحرام . وهم جميعا حريصون على تحريم هذه الشقة وحماية روادها من كل قبيل

وأخطر من ذلك كله أثرا فى إعظام شأن الكعبة أنها المفخرة القومية والحرم الإلهى الذى بقى للعرب بعد سيادة الروم على غسان وتغلب الحبشة والفرس على اليمن وشعور اللخميين – سادة الحيرة – أنفسهم بمناعة الكعبة ومناعة الطريق فى أيدى مضر ومن يواليها . وهو أن سلطان هؤلاء اللخميين حتى آل بهم الأمر إلى الدثور . ثم جاءت وقعة ذى قار التى انتصر فيها العرب على الفرس بعد زوال دولة اللخميين وقضاء الفرس عليها فهزت الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها ونمت على نخوة قومية عربية تمكنت من نفوس القبائل جميعا فاشرأبت أعناقها زمنا إلى كل ملاذ تقصر عنه أيدى فارس والروم

هؤلاء القوم الذين يفخرون بأنسابهم فيما بينهم . ويفخرون بجنسهم بين سائر الأجناس ، قد حلت اللغة عندهم محل العرش والدولة ومحل البذخ والحضارة ومحل العلم والصناعة . حتى أصبح الفخر بها علامة من العلامات التى يتميزون بها فى عرف علماء الأجناس البشرية . فإذا وجد الفخر باللغة فتلك علامة العربى بين العناصر عامة من أقاربه الساميين إلى الغرباء عنه من الآريين والطورانيين والحاميين . ثم تتجلى فيهم – دون سائر الأمم – تلك الظاهرة الفريدة فى تواريخ الأديان والثقافات ، وهى

العلو بالبلاغة حتى تكون البلاغة فى قسطاس كل مخاطب بالقرآن الكريم تحديا نبويا ، وتحديا ربانيا ، من معجزات الإله التى لا تتسامى إليها قدرة البلغاء فى أمة اللسن والبيان

وهذه ظاهرة متجلية للنظر القريب والبعيد لا تحتاج من المستشرقين إلى بحث عن مجهول أو معدوم . فما يجىء الكتاب بهذه المعجزة لأمة خلت من مأثورات البلاغة فى شعرها وجوامع كلماتها . وما هو بجائز عقلا أن يتحداها القرآن وهى لا تعرف من كلامها شيئا يتجه إليه ذلك التحدى وتدور عليه الموازنة فى عرف الخبراء بالكلم البليغ . فالقياس المستقيم أن القرآن نزل فى قوم لهم بلاغة موروثة يتناقلونها ولا يجهلون أعلامها . وأما القول بأن بلاغة الجاهلية لم تكن حقيقة واقعة وإنما اصطنعها الرواة اصطناعا بعد الإسلام سندا للقرآن ودفعا للشبهات عنه بين المؤمنين به – فليس من القياس المستقيم فى مقياس غير مقياس أولئك المستشرقين . وما كان الجاهلى الكافر ليقبل آية القرآن ولا يشك فى فصاحة القرآن ثم يأتى المسلم المؤمن فلا تثبت له فصاحة القرآن إلا بكلام يختلقه خلقا لينسب إلى أولئك الجاهليين . ولقد حدث نقيض ذلك فى كثير من الشواهد على صحة اللغة وسلامتها . فكان القرآن مرجع المصححين فيما يختلفون عليه ويبتغون له سندا لا مراء فيه

ومهما يبلغ من ضعف الذاكرة بالبادية – وليست هى بالضعيفة – فلن يبلغ من نسيانها أن ينقطع الجد عن أخبار أبيه وأخبار بنيه . وأن ينسى لغة سمعها فى حياته أو سمعها أبوه قبل مولده . فما كان جيلان أو ثلاثة أجيال بالامتحان العسير لذاكرة قوم لا معول لهم على غير الذاكرة ورواية الأخلاف عن الأسلاف . وأنه يمتنع أو يستحيل أن ينشأ الإسلام

في جيل يجهل اللغة التي تنسب إلى شعراء المعلقات وأقدمهم لم يسبق جيل الإسلام بأكثر من مائة وخمسين سنة . وفي هذه السنين خاصة توحد حساب التاريخ وتولاه قلامس العرب وخالفوا فيه تقويم اليهود في حساب النسيء . فكان جنادة بن عوف ناسئا عند ظهور الإسلام ، وسبقه أبوه عوف بن أمية وسبقه أبوه أمية بن قلع وسبقه أبوه قلع بن عباد . وسبقهم آخرون إلى عهد القلمس من بني كنانة . فهم في تاريخ معلوم متسلسل قبل الإسلام بأربعة أجيال

ومن فهاهة المستشرقين هؤلاء أنهم لا يختارون من تاريخ العرب مطعنا يصيبونه غير اللغة والأنساب . وكلهم يتحذلقون على العلم في شكوكهم الموكلة بالتاريخ العربي أو الإسلامي من أقدم عهوده . ثم يأتي العلم فيثبت بالكشوف المحسوسة صدق الخرافة المزعومة وكذب العلماء الزاعمين حتى لقد أصبح التخريف حقا لهؤلاء المحققين الذين لا يعرفون من التحقيق إلا أتهام كل رواية عربية أو إسلامية بالتخريف

فمن أقطاب هؤلاء المخرفين من أنكر عاداً وثموداً وأنكر الكوارث التي أصابتهم بغير حجة إلا أنه يحسب أن المنكر لا يطالب بحجة ولا يعاب على النفي الجزاف . فما لبثوا طويلا حتى تبين لهم أن عادا (Oadita) وثمودا (Thamudida) مذكورتان في تاريخ بطليموس وان اسم عاد مقرون باسم أرم في كتب اليونان . فهم يكتبونها « أدراميت Adramitae »
ويؤيدون تسمية القرآن لها بعاد أرم ذات العماد . . . وعثر المنقب موزيل التشكي Musil [1] صاحب كتاب الحجاز الشمالي على آثار

(1) Northern Hejaz by Musil.

هيكل عند « مدين » منقوش عليه كلام بالنبطية واليونانية وفيه إشارة إلى قبائل ثمود

ومن أقطاب هؤلاء المخرفين من أنكر أبرهة ونكبة جيشه واهتمامه بتعطيل الكعبة وبنائه « تقليس » في صنعاء لصرف العرب عن الكعبة إليها . ثم تكشف النقوش عن اسمه على خرائب سد مأرب ملقبا بالأمير الحبشي من قبل « ملك الحبشة وسبأ وريدان وحضرموت واليمامة وعرب الوعر والسهل » . . ويتواتر الخبر عن الجدري الذي تفشى في منتصف القرن السادس للميلاد فيذكره بروكوب (Procobe) من وزراء القسطنطينية ، ويروي الرحالة بروس (Bruce) الذي زار بلاد الحبشة في القرن الثامن عشر أن الأحباش يذكرون في تواريخهم أن أبرهة قصد إلى مكة ثم ارتد عنها لما أصاب جيشه من المرض الذي يصفونه بصفة الجدري . ولا يقل عن هذه الأسانيد جميعا سند التاريخ بعام الفيل قبل البعثة المحمدية بجيل واحد . بل أقل من جيل

وسد مأرب برمته لم يسلم من التكذيب . وبناء قريش للكعبة بعد مولد النبي هو أيضا تخريف في زعم هؤلاء المخرفين ولكنه لقي من يدحضه من المؤرخين الأوربيين المعاصرين . فكتب كرزويل تحقيقه الذي يقول فيه « إن العالم ليوني كايتاني يذهب إلى القول بأن قصة تعمير قريش للكعبة ليست إلا خرافة من نسج الخيال . فاليوم يثبت لنا جليا بعد ما أوردناه من الحقائق من بناء الكعبة على الطراز الحبشي في سنة ٦٠٨ ميلادية ووجود الصور المسيحية التي كانت تحلي باطنها وقيام معمار حبشي ببنائها – وهي جميعا حقائق متماسكة آخذ بعضها برقاب بعض – صدق

رواية المؤرخين الذى قصوا أخبار هذه العمارة وصحة ماذهبنا إليه وبطلان ما يدعيه كما يتأتى من اختراع هذه القصة وتلفيقها »[١]

ونحن نقف بهذه التواريخ عند حدها ولا نجاوز بها مداها ، فحسب الناظر فى التاريخ أن يفهم منها أن إخبار العرب عن لغتهم وعن أوائلهم لاتدحض جملة واحدة ، وقد تخالطها المبالغة وتتناقض حولها الغرائب ، بل ربما كان من دواعى إدحاضها أن تبرأ من كل مبالغة وغرابة ، فأما الكذب الذى يعاب على العلم ويلحقه بالخرافة فهو هذا التحقيق الذى هو أهون وأضر من التخريف .

* * *

إن الحوادث الكبرى تستدعى المقارنة بين فهمنا لها بمقاييس العلم ومقاييس الفلسفة ومقاييس العقيدة ، وتوحى إلينا فى جميع الأحوال أن مقاييس العقيدة أخلصها إلى أعماقها وأقدرها على التفسير كلما استحاشت العقيدة فى الأمم قوة الحياة وقوة الضمير .

والإسلام قد استصفى تاريخ العرب قبل دعوته فجمعه كله فى الوحدة القومية وأقام هذه الوحدة على ركنيها اللذين لاقوام لها بغيرهما على تساند واتفاق : وهما ركن اللغة وركن الحرية الدينية ، وكلاهما كان تمهيدا صالحا لظهور الدعوة الإسلامية .

إلا أن معجزة الإسلام فى جميع مقدماته ونتائجه إن هذه النتائج لم تكن قط منقادة مسخرة لتلك المقدمات ، فإن هذه العصبية اللغوية

(١) المجلة التاريخية المصرية ، عدد اكتوبر سنة ١٩٤٩

الدينية قد آلت فى يد الإسلام إلى دعوة إنسانية عالمية لاتنكر شيئا كما تنكر العصبية الجاهلية ، ولاتعرف ربا غير رب العالمين ولا قسطاسا غير قسطاس العمل الصالح يتفاضل به القرشى والحبشى والعربى والأعجمى وعترة النبى ومن ليست بينه وبين النبى لحمة غير لحمة الإيمان .

ونعود فنقول إن شأن اليهودية فى توضيح هذه الحقائق أعظم من كل شأن لها فى الجزيرة العربية . فما لانزاع فيه أن أناسا من اليهود قدموا إلى الجزيرة بلغة غير اللغة الحجازية فاحتفظوا بلغة الدين للدين ولم يمض عليهم زمن طويل حتى عم التفاهم بينهم وبين سائر العرب بلسان الحجاز وتهامة ونجد ومن جاورهم من الأنباط وعرب الحيرة وبادية الشام . وهذه حقيقة تاريخية واقعية مسقطة لكل دعوى يتحذلق بها أدعياء العلم من محترفى التبشير والاستشراق .

المسيحية فى الجزيرة

أما المسيحية فقد كان لها مدخل إلى الجزيرة العربية غير هذا المدخل . فلم تصل إلى داخل الجزيرة عشيرة كبيرة أو صغيرة من المهاجرين ، ولم يأتها قوم بلسان غير اللسان العربى كما حدث فى هجرة اليهود . ولكنها شاعت بين قبائل من العرب فى جيرة الدول التى سيطرت على أطراف الجزيرة ، وهى بيزنطية وفارس والحبشة . وكان لمذهب العاهل القائم بالأمر فى دولة بيزنطية أثر كبير فى توجيه النحل والمذاهب فى بلاده وبلاد أعدائه . وقد حدث فى مدى قرن واحد أن العواهل كانوا يحرمون المسيحية على رعاياهم ثم دانوا بها على مذهب وجاء من بعدهم فدان بها على مذهب يعاديه ويرميه بالكفر والزندقة . فمن شاء أقام مع العاهل فى

بلاده طائعا له أو مداريا لأمره وإلا فى بلاد أعدائه من الفرس متسع له يعلن فيه مذهبه وينطلق فى تسفيه العاهل وشيعته غير ملوم ولاممنوع .

وأفلت إلى الجزيرة العربية آحاد من كل نحلة مسيحية غضب عليها عاهل القسطنطينية ، فهاجرت إليها فئات متفرقة من أتباع آريوس وأوريجين ونسطور ولوسيان الأنطاكى وجماعة المشبهين وجماعة القائلين بالطبيعة الواحدة والقائلين بالطبيعتين .

وكان نسطور بطرقا للقسطنطينية ينشر مذهبه ببأس الدولة ثم عزل وتعقبه خصومه بالنفى إلى أرض النوبة . ومحور مذهبه أنه يفصل بين الناسوت واللاهوت فى السيد المسيح ويرفض القول بتأليه العذراء عليها صلوات الله . وكان الأنطاكى يناقض تفسير الكتب الدينية بأسلوب المجازات والرموز ويلتزم اللفظ والنص فى فهم معانيها ومسائلها الغيبية . وكان آريوس يقول إن الكلمة هى واسطة الخلق ويقول أوريجين إنها مخلوق محدث له الشرف على سائر المخلوقات . وإن هذه الكلمة تجسمت فى السيد المسيح فظهرت على مثال الإنسان . وآخرون يقولون إن جسد السيد المسيح تشبيه بالجسد وليس بالجسد المادى الذى يحكى جسد الإنسان . وإنه فى لاهوته أجل وأرفع من أن يتعذب أو يتضرع . وصيحته عند الصلب لم تكن « ربى ! ربى ! » بل كانت : قوتى ! قوتى ! كما ورد فى بعض النصوص .

ويعترف جورج سيل مترجم القرآن بما كانت عليه حال المسيحيين فى الحجاز من السوء والضلالة ، فيقول فى مقدمته للترجمة « من المحقق أن ما ألم بالكنيسة الشرقية من الاضطهاد واختلال الأحوال فى صدر المائة

الثالثة للميلاد قد اضطر كثيرين من نصاراها أن يلجأوا إلى بلاد العرب طلبا للحرية وكان معظمهم يعاقبة فلذا كان معظم نصارى العرب من هذه الفرقة . وأهم القبائل التى تنصرت حمير وغسان وربيعة وتغلب وبهراء وتنوخ وبعض طيئ وقضاعة وأهل نجران والحيرة . . . ولما كانت النصرانية بهذه المثابة من الامتداد فى بلاد العرب لزم عن ذلك ولابد أنه كان للنصارى أساقفة فى مواضع جمة منها لتنتظم بهم سياسة الكنائس وقد تقدم ذكر أسقف ظفار وقال بعضهم كانت نجران مقام أسقف وكان لليعاقبة أسقفان . يدعى أحدهما أسقف العرب بإطلاق اللفظ وكان مقامه باكولة وهى الكوفة عند ابن العبرى أو بلدة أخرى بالقرب من بغداد عند أبى الفداء . وثانيهما يدعى أسقف العرب التغلبيين ومقامه بالحيرة . أما النساطرة فلم يكن لهم على هذين الكرسيين سوى أسقف واحد تحت رئاسة بطريركهم »

إلى أن يقول : « أما الكنيسة الشرقية فإنها أصبحت بعد انفضاض المجمع النيقاوى مرتبكة بمناقشات لاتكاد تنقضى وانتقض حبلها بماحكات الآريوسيين والنساطرة واليعقوبية وغيرهم من أهل البدع . على أن الذى ثبت بعد البحث أن كلا من بدعتى النساطرة واليعقوبية كانت بأن تدعى اختلافا فى التعبير عن المعتقد أولى من أن تدعى اختلافا فى المعتقد نفسه . وبأن تدعى حجة يتعنت بها كل من المتناظرين على الآخر أولى من أن تدعى سبباموجبا لالتئام مجامع عديدة يتردد إليها جماعة القسان والأساقفة ويتماحكون ليعلى كل واحد منهم كلمته ويحيل القضايا إلى هواه . ثم إن نافذى الكلمة منهم وأصحاب المكانة فى قصر الملك كان كل واحد منهم يختص نفرا من قواد الجيش أو من أصحاب الخطط

يكون له عليهم الولاء ويتقوى بهم ، وبذلك صارت المناصب تنال بالرشى والنصفة تباع وتشترى جهارا . أما الكنيسة الغربية فقد كان فيها من تهالك دماسوس وارسكينوس فى المشاحة على منصب الاسقفية – أى أسقفية روته – ماأفضى إلى احتدام نار الفتنة وسفك الدماء بين حزبيهما . . وكان اكثر ماتنشأ هذه المناقشات عن القياصرة أنفسهم ولاسيما القيصر قسطنطينوس فإنه إذ لم يقدر أن يميز بين صحيح الدين المسيحي وخرافات العجائز ربك الدين بكثير من المسائل الخلافية . . . .

هذا ماكان عليه حال النصرانية فى غير بلاد العرب . أما فى بلاد هذه الأمة التى هى موضوع بحثنا فلم تكن خيراً من ذلك . . . فكان فى نصارى العرب قوم يعتقدون أن النفس تموت مع الجسد وتنشر معه فى اليوم الآخر وقيل إن أوريجانوس هو الذى دس فيهم هذا المذهب ، وكم وكم من بدعة انتشرت فى جزيرة العرب حتى لانقول نشأت فيها ؟ ! فمن ذلك بدعة كان أصحابها يقولون بألوهية العذراء مريم ويعبدونها كأنما هى الله ويقربون لها أقراصا مضفورة من الرقاق يقال لها كليرس وبها سمى أصحاب هذه البدعة كليريين . . . وفضلا عن ذلك فقد اجتمع أيضا فى جزيرة العرب عدد وافر من الفرق المختلفة الأسماء لجأوا إليها هربا من اضطهاد القياصرة . . »

فالحالة التى تمثلت بها النصرانية فى جزيرة العرب لم تكن حالة هداية يحيط بها مذهب واحد صالح لتعليم من يتعلمه ، بل كانت شيعا سياسية ومذاهب متنازعة يتوقف العلم بالصالح منها على هدى الناظرين فيها وعلى ماعندهم من البصر الثاقب والبداهة المنزهة التى يعود إليها الفضل فيما تقبله وتأباه ؛ ولافضل عليها لمن يعلمها نحلة من تلك النحل تقدح فى سائرها وترى الذين يتبعونها بالكفر والضلال .

والقرآن الكريم يصف هذه الحالة بين أهل الكتاب جميعا كما جاء فى سورة المائدة عن طوائف اليهود والنصارى .

قال عز من قائل : « **ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا وقال الله إنى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضًا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل . فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين . ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون** »

هذه حالة النصرانية فى الحجاز كما عهدها النبى عليه السلام قبل مبعثه ، وهى بهذه المثابة من مقدمات رد الفعل لامن مقدمات التمهيد والتحضير ، سواء كان ذلك فى أمر النبى أو أمر الحكماء من طلاب الهداية الذين عرفوا باسم المتحنفين أو المتحنثين .

وينبغى الاحتراس من قول القائلين إن أحدا من أولئك المتحنفين أو الحنفاء تنصر أو تهود على مذهب مفصل مستوعب لعقائد النصرانية أو اليهودية . فكل مايصح من أخبار الحنفاء أنهم كانوا يعرفون أن الإيمان بالإله الواحد أهدى وأحكم من الإيمان بالنصب والأوثان ، ونحسب ابن هشام قد صدق الرواية حقا حين قال عن أشهر هؤلاء المتحنفين

زيد بن عمرو بن نفيل أنه « وقف ولم يدخل في يهودية ولا نصرانية فارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والذبائح التي تذبح على الأوثان ونهى عن قتل الموءودة وقال أعبد رب إبراهيم . . . وكان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول : يامعشر قريش ! والذى نفس زيد بن عمرو بيده ماأصبح منكم على دين إبراهيم غيرى . ثم يقول : اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك ولكنى لا أعلم »

ومثل ابن نفيل ورقة بن نوفل الذى قصدت إليه السيدة خديجة لتسأله عن جبريل الذى نطق لنبى عليه السلام باسمه أمامها . فإنه كان يطيل القرءة فى كتب اليهود والنصارى ويعلم أن عبادة الأصنام ضلالة فيلتمس الهداية فى غيرها ولا يستوفى العلم ولا الإيمان بأى الديانتين . وغاية الأمر فى نصرانيته كما قال ابن هشام أنه « كان نصرانيا تتبع الكتب وعلم من علم الناس » . . وقد ذكر عنه مع ثلاثة من أصحابه . أحدهم ابن نفيل . أنهم كانوا قد انصرفوا من عند صنم يعظمونه فى يوم عيد فقال بعضهم لبعض : « تعلموا والله ماقومكم على شىء . . لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم . ماحجر نطيف به لايسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ياقوم ! التمسوا لأنفسكم فإنكم والله ماأنتم على شىء »

قال ابن هشام : فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفة دين إبراهيم

ونحن نعلم من القرآن الكريم أن المشركين كانوا يقولون إنهم لم يعبدوا الأرباب والأوثان إلا ليقربوهم إلى الله زلفى . وسنرى فى الكلام على الكعبة أن الحقبة التى سبقت بعثة النبى شهدت طوائف من المجتهدين فى العبادة منهم طائفة الحمس التى اختصت الحرم وحده بالتقديس

وتنسكت بضروب من العبادة لم يتبعها أحد من قبلهم فى الجاهلية فقد كانت الحقبة إذن حقبة حائرة بين العبادات ولم تكن عبادة منها تستأثر بضمير صاحبها أو تغنيه عن النظر فى غيرها . وقد كانت هذه الحيرة فى جانب من جوانبها على الأقل أثرا من آثار الجامعة القومية أو أثرا من آثار الشوق إلى ديانة جامعة غير ديانة الأصنام المتفرقة لكل قبيلة من القبائل صنم تنفرد به أو تميزه بين زمرة الأصنام المشتركة .

فقد كانت القبائل تعبد أصنامها ولم تكن بها حاجة إلى الاشتراك فى عبادة واحدة تشملها . فلما وجدت هذه الحاجة لمسوا النقص فى كل عبادة من عباداتهم وذهب أصحاب النظر منهم يبحثون عن الدين الصالح ويستلهمون من كلمة « بيت الله » قبسا يقربهم من الله ومن ديانة رب البيت وبانيه إبراهيم عليه السلام . وقديما نسب الحجازيون أنفسهم إلى إسماعيل بن إبراهيم ونسبهم إليه أصحاب التوراة وعلماء الأنساب .

وإن أصدق وصف للحالة الدينية فى عصر البعثة الدينية أنها حالة نقص فى كل نحلة وكل عقيدة . فلم نعلم من أخبار الوثنية قط أنها كانت تستوعب المؤمن بها وتمنعه أن يأخذ ببعض الشعائر من هنا وأن يتقبل بعض الآراء من هناك ولم تكن الحدود بين النحل والعادات الدينية متحجرة مستقرة على قرار لايأذن بالتبديل والزيادة والتحوير . ولم يكن المتدين منهم جميعا يتنبه إلى الابتداع فى أمر الدين إلا أن يسومه الخروج على قومه والزراية بشرعة الآباء والأسلاف فيومئذ تنقلب المسألة من تصرف فى الشعائر والآراء إلى النخوة العصبية والغيرة على الأحساب والأنساب . وتصطدم البدعة الجديدة إذن بالعصبية القومية كلها فى

إبان اليقظة والطموح ، وهذه الصدمة لم تفاجئ أبناء الجاهلية قط من نحلة يحكونها أو يستجيبون لها بحكم المسايرة والمجاراة . وإنما فاجأتهم من دعوة الإسلام وحده فتمردوا عليه ذهابا مع العصبية وتراث الحسب والنسب ولم يتمردوا عليه ذيادا عن ملة شاملة تستأثر منهم بالضمائر والأفكار .

فالوحدة القومية مهدت للإسلام إلى حد محدود . ويسرت له الأمر بالتوقع والانتظار ثم وقفت دون الغاية حين اصطدمت القومية بالدعوة الجديدة ووجب أن تثوب الدعوة الجديدة إلى قوة أكبر من قوة القومية التى اعتز بها المشركون وخلطوها بما ألفوه من السيادة والمصلحة فى التراث القديم .

فبالوحدة القومية تمهدت طريق الإسلام ، وبقوة الإسلام برزت من الوحدة القومية شريعة الإنسان وعبادة رب العالمين .

ولم نذكر فيما تقدم عاملا من أشهر عوامل هذه الوحدة القومية وهو يوم ذى قار الذى انتصر فيه العرب على الفرس وارتجت له الجزيرة العربية بالفخر والأمل فى مطلع العصر الإسلامى وعند ولادة النبى عليه السلام .

لم نذكره لنضعه كما وضعه أناس فى مقدمة العوامل الكبرى ، ولاننساه هنا لنحسبه منها ولانقدمه عليها ، فلو لم يكن يوم ذى قار لكانت الوحدة العربية وكانت توابعها التى لحقت بها فى أوانها . ولعل وثبة ذى قار جاءت بعد الوحدة القومية ولم تسبقها ، ولعلها كانت الجولة الثانية بعد الجولة الأولى على تخوم الدولة الفارسية ، فلما تنازع

أمراء الحيرة وشواهين الدولة غلبت الدولة على الإمارة وقضى الأكاسرة والشواهين على المناذرة والنعامين ، ولما التقت سطوة فارسية ونخوة عربية فى الجولة التالية ظفرت القبائل حيث أخفق الأمراء .

كانت ذو قار وليدة النخوة العربية ولم تكن أمها التى ولدتها ، وإنما كانت أم الأمهات فى هذه النهضة وحدة اللسان ووحدة الجنان .

• • •

النبوة المحمدية

أوائل النبوات

ندع الآن هذه الوحدة ريثما نعود إليها في الكلام على الكعبة المكية ، ونرجع بتاريخنا إلى أوائل النبوات لنمضي بها إلى ختامها بالرسالة المحمدية ، فإن تاريخ النبوة من أوائلها أصلح المقدمات لبيان فضل النبوة كما بعث بها خاتم الأنبياء

من قديم الزمن وجدت الرغبة في العلم بالغيب واستطلاع المجهول ، ووجدت لذلك علامات كثيرة يتفق عليها الناس عامة من قبيل زجر الطير والتفاؤل بالكلام المسموع والمناظر التي تبشر بالخير والنجاح أو تنذر بالشر والخيبة .

هذه العلامات العامة كانت معرفة شائعة بين الناس لا يختص بها أحدهم دون غيره ، فكل ماعرفه الناس قديما من علامات التفاؤل أو علامات التشاؤم فهو ميراث الجماعة يتناقلونه على وتيرة واحدة من الآباء إلى الأبناء .

لكن الرغبة في استطلاع الغيب ومواجهة المجهول لم تكن كلها من هذا القبيل ، ولاسيما المجهول الذي يعرفه الآلهة وحدهم ولا يكشفونه لغير المقربين من عبادهم ، وهم خدام معابدهم والأمناء على مشيئتهم والمترقبون لوحيهم في ليلهم ونهارهم ، فربما عرض للقبيلة عارض جسيم لاتعرف وجهها فيه ، ولا يلطها على هذه الوجهة طير يراه فرد من أفرادها

على صورة من الصور ، أو كلمة يسمعها من عابر طريق يستوحي منها البشارة أو الإنذار . فإن شئون الفرد غير شئون القبيلة . وليس لفرد من عامة أفرادها أن يدعي لنفسه القدرة على سؤال أربابها والفهم عنهم في معابدهم ومحاريبهم ، مع وجود الكاهن الذي انقطع لخدمة الأرباب وورث هذه الخدمة من آبائه وأجداده في أكثر الأحوال ، ولا مع وجود الكاهن الذي ترقى من صباه في مهد العبادة ليقرب من الأرباب المعبودين ويفقه عنهم من إشاراتهم ومضامين وحيهم ما يخفى على سواه .

ومن قديم الزمن أيضاً وجد الكاهن « المختص » ووجد « الرائي » منهم الذي يختاره الإله للنطق بلسانه والجهر بوعده ووعيده . ولم يكن بين عمل الكاهن وعمل الرائي تناقض في مبدأ الأمر . لأن كلام الرائي كان يحتاج إلى تفسير الكاهن وحل رموزه ونفي « النفاية » من خلطه وخضرمه . ذكان الغالب على الرائين أنهم قوم تملكهم حالة « الوجد » أو « الجذبة » أو « الصرع » فيندفقون بالوعد والوعيد وينذرون الناس بالويل والثبور ، ويقولون كلاما لا يذكرونه وهم مفيقون . فيحسب السامعون أن الوثن المعبود يجري هذا الكلام على ألسنتهم للموعظة والتبصرة ، وسمي الصرع من أجل هذا بالمرض الإلهي في الطب القديم

وكان اليونان يسمون الرائي مانتي Mantis ويسمون المعبر عنه أو المفسر لكلامه بروفيت Prophet أي المتكلم بالنيابة عن غيره . قبل أن تطلق هذه الكلمة على النبي بمعناها المأثور في الأديان الكتابية ، ولكن الفرق بين الرائي والكاهن لم يزل ملحوظا في الأزمنة المتأخرة كما كان

ملحوظا في الأزمنة الغابرة . فالكهانة وظيفة والرؤية طبيعة ، والكاهن يقصد مايقوله والرائي يساق إليه ، وقد تشترك الكهانة والرؤية في شخص واحد ويظل العملان مختلفين ؛ فما يقوله الكاهن قصدا غير ما يقوله وهو « راء » ينطق لسانه بما يعيه وما لا يعيه .

ويصطدم العملان كثيرا بعد ارتقاء الديانة وامتزاجها بالفضائل الأخلاقية والفرائض الأدبية ، فإن الكهان في هذه الحالة يجمدون أحيانا على المراسم والشعائر ويحافظون على مناصبهم بالتماس الحظوة عند ذوي السلطان في بلادهم ، ويومئذ يختلف عمل الكاهن المرسوم وعمل الرائي المتطوع ، فيثور الرائي على الكاهن ويتهمه في أمانته وإيمانه ، وبحدث بينهما ما حدث بين « أمصيا » كاهن بيت إيل وعاموس الرائي ، إذ يحذره الكاهن على رزقه وحياته فيقول له : « أيها الرائي اذهب . . اهرب إلى أرض يهودا وكل هناك خبزا وكن هناك نبيا . وأما بيت إيل فلا تعد تتنبأ فيها بعد ، لأنها مقدس الملك وبيت الملك »

٠ ٠ ٠

وقد وجدت الكهانة والرؤية بين العبرانيين من أقدم عصورهم كما وجدت في سائر الأمم ، ولم يسموا الرائي عندهم باسم النبي إلا بعد اتصالهم بالعرب في شمال الجزيرة . . . إذ وجدت كلمة النبوة في اللغة العربية كما قلنا في كتاب أبي الأنبياء ، غير مستعارة من معنى آخر ، لأن اللغة العربية غنية جدا بكلمات العرافة والعيافة والكهانة وما إليها من الكلمات التي لا تلتبس في اللسان العربي بمعنى النبوة كما تلتبس في الألسنة الأخرى . . . والعبريون قد استعاروها من العرب في شمال الجزيرة بعد

اتصالهم بها ، لأنهم كانوا يسمون الأنبياء الأقدمين بالآباء وكانوا يسمون المطلع على الغيب بعد ذلك باسم الرائي والناظر ، ولم يفهموا من كلمة النبوة في مبدأ الأمر إلا معنى الإنذار . . . وقد أشارت التوراة إلى ثلاثة أنبياء من العرب غير ملكي صادق الذي لقيه الخليل عند بيت المقدس . . وهم يثرون وبلعام وأيوب ومنهم من يقال إنه ظهر قبل اثنين وأربعين قرنا وهو أيوب »

ويعزز هذا الرأي ماجاء في موسوعة الكلمات اللاهوتية[1] في التوراة عن عالمين من أكبر علماء التاريخ العبري وهما هولشر Holscher وشميدت Schmidt فإنهما يرجحان أن كلمة النبوة مما استفاده العبريون من أهل كنعان بعد وفودهم على فلسطين .

النبوة والجنون

عرف الأقدمون من العرب والعبريين كلمة النبوة قبل بعثة موسى عليه السلام ، ولكنها لم ترتفع بينهم إلى مكانتها الجليلة التي نعهدها اليوم دفعة واحدة ، وغبر عليهم دهر طويل وهم يخلطون بينها وبين كل علاقة بالغيب ، وينظرون منها الكذب كما ينتظرون منها الصدق شأنها في ذلك كشأن غيرها من الدلالات على المجهول .

فخلطوا بينها وبين الجنون ، كما خلطوا بينها وبين السحر والكهانة والتنجيم والشعر ، وأضعف من شأن النبوة عند بني إسرائيل خاصة أن لأنبياء بينهم كثروا وتعددت نبوءاتهم في وقت واحد فتناقضوا وأشار

(1) A Theological Word Book of the Bible, edited by Richardson.

بعضهم بما ينهى عنه الآخرون ، فأصبح الأنبياء عندهم فريقين يتشابهون فى المسلك والمظهر ويختلفون بالصدق والكذب ، ولا سبيل إلى معرفة الصادق والكاذب بغير امتحان الحوادث التى تأتى أحيانا بعد نسيان ماتقدم من النبوءات .

وغلبت عليهم فى مبدأ الأمر عقيدة شائعة بذهول النبى وغيابه عن الوعى فى جميع أيامه وفى الأيام التى يملكه فيها الوجد الإلهى على الخصوص ، كأنهم يرون أن الغيبوبة والاتصال بالغيب شىء واحد ، وكأنهم يحسبون أن الانقطاع عن شواغل الدنيا آية على صدق النبى وإقباله بجملته على الله .

ويؤخذ من سفر صمويل الأول أن المتنبئين كانوا يظهرون جماعات جماعات « إذ أرسل شاول رسلا لأخذ داود فرأوا جماعة الأنبياء يتنبأون وشاول واقفا بينهم رئيسا عليهم ، فهبط روح الله على رسل شاول فتنبأوا هم أيضا وأرسل غيرهم فتنبأ هؤلاء . . . فخلع هو أيضا ثيابه وتنبأ هو أيضا أمام صمويل وانطرح عاريا ذلك النهار كله وكل الليل » .

ومن لم تملكه حالة الوجد برياضة النفس على الخشونة والشظف وتعريض جسده لحرارة الشمس وبرد الليل فقد يستعين على اكتسابها بالسماع والجولان وينتقل بهذه الوسيلة إلى النشوة أو الغيبوبة فينطلق لسانه بالنبوءات والرموز ويستخلص منها السامعون تفسيرها بما جرت عليه عادتهم من التأويل والتخريج .

وفى سفر صمويل قبل ذلك « أنه يكون عند مجيئك . . إلى المدينة أنك تصادف زمرة من الأنبياء نازلين من الأكمة وأمامهم رباب ودف

وناى وعود وهم يتنبأون . فيحل عليك روح الرب فتتنبأ معهم وتتحول إلى رجل آخر » .

وفى سفر الأيام الأول أن داود ورؤساء الجيش « أفرزوا للخدمة بنى آساف وهيمان ويدوثون المتنبئين بالعيدان والرباب والصنوج » .

وقد يعتزل بنو الأنبياء كأنهم يرشحون أنفسهم للنبوة بعد آبائهم حتى يضيق بهم مكانهم كما جاء فى سفر الملوك الثانى : « وقال بنو الأنبياء لأليشع هو ذا الموضع الذى نحن مقيمون فيه أمامك قد ضاق علينا فلنذهب إلى الأردن » .

وعلى هذه الحيرة التى كانت تنتاب القوم بين النبوءات الكثيرة لم يكن بهم غنى عن النبى الصادق الذى يحذرهم غضب الله ويبلغهم مشيئته ويملى عليهم فرائضه وأحكامه فلم يعرضوا عن الأنبياء كل الإعراض ولم يقبلوا عليهم كل الإقبال ، ورجعوا إلى التجربة فى التفرقة بين النبوءات . وعقيدتهم فى ذلك ماجاء فى سفر التثنية خطابا لموسى عليه السلام : « وأقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك واجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ماأوصيه به . ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه . وأما النبى الذى يفرض عليكم باسمى كلاما لم أوصه أن يتكلم به أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبى وإن قلت فى قلبك كيف تعرف الكلام الذى لم يتكلم به الرب فما تكلم به النبى باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهو الكلام الذى لم يتكلم به الرب . بل بطغيان تكلم به النبى فلا تخف منه » .

وعلى هذا انقسم المتنبئون أقساما ثلاثة . نبى يتكلم باسم الرب ، ونبى يتكلم باسم آلهة أخرى ، ونبى يتكلم باسم رب إسرائيل ولكنه يطغى بما فى قلبه على وحى ربه ، فيخلط بين مايقوله هو بلسانه وبين مايجريه الله على لسانه ليبلغه إلى قومه .

والمرجع فى التفرقة بين الأنبياء إلى صدق النبوءة ، فإذا امتد الأجل بالنبى حتى يشهد القوم صدقه فى نبوءة بعد أخرى فذاك هو النبى المختار الذى يطاع وتكتب عنه النبوءات ، وربما قضى صدر حياته مهانا منبوذا بين قومه كما حدث للنبى أرميا الذى أصبح عند كتابة العهد القديم فى زمرة كبار الأنبياء ، وقد حكى ذلك فقال فى الإصحاح العشرين : « قد أقنعتنى يارب فاقتنعت وألححت على فغلبت . . . صرت للضحك كل النهار . . . وكلهم قد استهزأ بى . لأنى كلما تكلمت صرخت . . . ناديت ظلم واغتصاب . . فقلت لا أذكره ولا أنطق بعد باسمه ، فكان فى قلبى كنار محرقة محصورة فى عظامى . . . »

نبوءة الأحلام والرؤى

ومن الحق أن نذكر أن المتنبئين لم يتطلعوا جميعا إلى مكان النبوة العليا – نبوة القيادة والتعليم والتشريع – ولم تكن نبوة الكثيرين منهم مستمدة من شىء غير الأحلام والرؤى وجيشان الشعور والحاحه على صورة واحدة ، يعجز المتنبئ عن صرفها فيجهر بها صارخا كما فعل أرميا كأنه يستغيث من لاعج فى نفسه لايقوى على كتمانه . ومنهم من كان يرى الرؤى ثم تتكرر فى منامه ، فيفضى بها إلى قومه مخافة الكتمان وحذرا من أن يكون هذا الكتمان نكوصا عن الدعوة وممالأة على العصيان والفساد ؛

وقل منهم من أبلغ قومه أنه تلقى الوحى من هاتف مسموع أو شخص منظور فى حالة اليقظة ، ومن هؤلاء القليلين صمويل الذى « سمع قبل أن ينطفئ سراج الله وهو مضطجع فى تابوت الرب صوتا يدعوه » ويعود إلى دعوته لتوكيدها ، ومنهم دنيال الذى قال إن « الرجل جبريل الذى رآه فى الرؤيا ابتدأ يلمسه عند تقدمه الماء ويتكلم معه ويقول له إنه خرج ليعلمه الفهم ويرشده » . . ومنهم من كان يستعظم الدعوة حين يحسها فى صدره فيقول كما قال أشعيا : « إنى هلكت لأنى إنسان نجس الشفتين أسكن بين شعب نجس الشفتين » إلى أن قال « إن عينى قد رأتا الملك رب الجنود فطار إلى واحد من السرافيم وبيده جمرة قد أخذها بملقط من على المذبح ومس بها فمى وقال إن هذه قدست شفتيك فانتزعت إثمك وكفرت عن خطيئتك » .

وجاشت نفس أرميا وهو صبى بخواطر النبوة ثم ألقى إليه أن الرب يقول له : « قبلما صورتك فى البطن عرفتك وقبلما خرجت من الرحم قدستك . جعلتك نبيا للشعوب » فاستكثر النبوة على سنه وقال فى صلاته : آه ياسيد الرب من ابن لى أن أعرف الكلام وأنا ولد ، فمد الرب يده ولمس فمه وقال : هاقد جعلت كلامى فى فمك ، فانظر ، لقد وكلتك هذا اليوم على الشعوب وعلى الممالك لتقلع وتهدم وتهلك وتنقض وتبنى وتغرس .

ولقد خشى الأنبياء الكبار على الشعب خطر المعجزات والآيات التى يدعيها المتنبئون ؛ لأنهم عرفوا عجائب السحر فى مصر وبابل وأشفقوا من فتنها على عقول السواد فلم ينكروا المعجزة الصادقة ولكنهم حسبوا حساب المعجزة الكاذبة التى يقتدر عليها السحرة وأتباع الأرباب المحرمين

فكان من وصايا سفر التثنية التى تنسب إلى موسى عليه السلام « أنه إذا قام فى وسطك نبى أو حالم حلما وأعطاك آية أو أعجوبة ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التى كلمك عنها قائلا لتذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدها فلا تسمع لكلام ذلك النبى أو الحالم ذلك الحلم . لأن الرب إلهكم يمتحنكم لكى يعلم هل تحبون الرب إلهكم من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم . . . وذلك النبى أو الحالم ذلك الحلم يقتل لأنه تكلم بالزيغ من وراء الرب . . »

إلا أن الحيرة بين أصحاب الآيات والمعجزات لم تبطل فى عهد أنبياء بنى إسرائيل ولا بعد ظهور السيد المسيح . فكان الرسل يستدلون بالعجائب والآيات العظيمة على صدقهم وكانت العجائب الكثيرة تجرى على أيدى الرسل كما جاء فى سفر الأعمال ، وكان بولس الرسول يبكت أهل كورنثوس وينعى عليهم سوء معتقدهم بعد العلامات التى صنعها بينهم وصبر عليها بآيات وعجائب وقوات . . . وكان إلى جانب هذا يحذر الشعب ممن يقتدرون بقوة الشيطان على الآيات والعجائب الكاذبة « بكل خديعة الإثم فى الهالكين » .

وجاء فى الرؤيا أن الأنبياء الكذبة يقتدرون على ذلك إلى آخر الزمان . . « ومن فم النبى الكذاب ثلاثة أرواح نجسة تشبه الضفادع ، فإنهم أرواح شياطين صانعة للآيات تخرج على ملوك العالم وعلى كل المسكونة لتجمعهم لقتال ذلك اليوم العظيم » .

ومنذ عرف اسم النبوة بين قبائل إسرائيل ظهر فيهم مئات وألوف من هؤلاء المتنبئين لم يكن شأن الأكثرين منهم لزيد على شأن الدراويش الذين يلوذون بأماكن العبادة أو أماكن الزيارة فى جميع الأديان ، ولم

تكن قبائل البادية ولا أهل القرى ليضيقوا بتكاليف معاشهم لأنهم كانوا يقنعون بالقليل من الخبز والأدم وبالخشن الرخيص من ملابس الشعر والصوف ، وربما استراح إليهم الدهماء لأنهم يفرجون عن صدورهم بالاجتراء على كبرائهم وسروانهم الذين يستسلمون للطمع والكبرياء ، أو ربما حمد لهم الأمهات والآباء أنهم يباركون أطفالهم ويشفون مرضاهم ويفوهون أمامهم بأطراف من الأقاويل يفسرون رموزها بما يطيب لهم ولا يشعرون منها برهق شديد لأنهم لا يحملون مؤنتها إذا أخذت مأخذ الجد والجسامة ، بل ترتفع إلى أيدى ولاة الأمر ورؤساء الدين والكهان والحكماء فيوفقون بين نقائضها أو يستخدمونها فى تلقين الشعب ما يحبون أن يقولوه بلسان المتنبئين ولا يقولونه بألسنتهم ، خوفا من تبعاته أو من قبيل الحيطة للتراجع إذا حسن لديهم أن يرجعوا عما فرضوه وأثبتوه .

كان خطب المتنبئين من هذا القبيل ميسورا للقبائل ورؤسائها ، حتى إذا ظهر الأنبياء الكبار ظهرت معهم حالة كبرى لا تعرض كل يوم ، لأنهم لا يظهرون إلا إذا احتاجت القبائل إلى تغيير شامل فى معيشتها وأخلاقها ومعاملاتها ، وقد يتقاضاهم الأمر هجرة إلى بلد ناء أو قتالا مع أهل البلد الذى هم فيه أو مع أهل جواره ، وليست خطتهم مع المتنبئين الصغار بمجدية مع هؤلاء الأنبياء الكبار دعاة التغيير الشامل وأصحاب الحق فى القيادة المطاعة ، وإنما الخطة المجدية هنا هى الانقياد للدعوة التى يخشى على من يعصيها أن يهلك بغضب من الله ولو عم الهلاك قومه أجمعين فلا يلبث النبى الكبير أن ينزل فى منزلته بين القوم وأن يتولى بينهم مكان القيادة والتشريع والتعليم ، وهو أرفع مكان يسمو إليه عندهم صاحب حق أو صاحب سلطان .

دليل الأمان

إن مهمة النبوة كما قام بها هؤلاء الأنبياء الكبار هى أعلى ما ارتفع إليه نظر الأقدمين من بنى إسرائيل وغيرهم إلى مقام النبوة ، فقد كانوا يلقون عليهم كل معولهم ، ويطلبون منهم مالم يطلبوه قط من ذى ثقة أو مقدرة بينهم ، فانتهت هذه المطالب كافة إلى غاية واحدة : وهى أن النبى « دليل أمان »

يقبلون منه التعليم والهداية ، ولكنهم يقبلون تعليمه وهدايته لأنه دليلهم إلى الطريق الأمين .

ويستمعون له فيما يبلغهم من أوامر الله ونواهيه ، ولكنهم يستمعون له لأنه يزحزحهم عن طريق الغضب والنكال .

ويجب عليه قبل كل شىء أن يعرف الغيب ليعرف الخطر المتوقع عليهم وعلى أعدائهم الذين يبغضونهم ولايقدرون على قتالهم وربما طلبوا منه أن يكشف لهم الغيب لما هو أهون من ذلك بكثير : وهو تعريفهم بمكان المال الضائع والحيوان الضال .

ولبثت مهمة النبى عندهم معلقة على دلالة الأمانة فى المكان المجهول والزمان المجهول ، ولكنها دلالة الأمان من أخطار محسوسة تشبه تلك الأخطار التى تحذرنا منها المراصد ومكاتب التأمين . فمنها أخطار الخراب وأخطار الوباء وأخطار المصائب فى الأقارب والأعزاء .

ولم يبلغ أحد من أنبياء بنى إسرائيل مكانة أعلى من مكانة يعقوب الذى ينتسب إليه بنو إسرائيل ، أو موسى الذى يدينون له بالشريعة ، ثم صموئيل وحزقيال وأرميا من أصحاب النبوات غير المشترعين .

وكل هؤلاء كانت مهمة النبوة فيهم مقترنة بالمهمة الأخرى التى لا فكاك منها ، وهى دلالة الأمان بالمعنى المتقدم ، أو دلالة الأمان كما يعرفها المرء من المراصد ومكاتب التأمين ، وإن تكن قائمة على الهداية والتعليم .

فى نبوءات يعقوب يفهم أنهم كانوا يعولون عليه فى رصد النجوم ، وأن كل اسم من أسماء الأبناء يشير إلى برج من بروج السماء . ولانستقصى الأسماء هنا بل نشير منها إلى مثلين يغنيان عن غيرهما ، وهما مثل يهودا وشمعون ولاوى « فيهودا جرو أسد جثا وربض كأسد ولبوة . . لا يزول قضيب من يهودا ومشترع من بين رجليه حتى يأتى شيلون وله يكون خضوع شعوب » .

وهذه إشارة إلى برج الأسد ، وكان عند البابليين برجان أحدهما برج الأسد أرجولا والآخر أرماح أحد نجوم الدب الأكبر . وأمام الأسد فى البروج برج يشير إلى علامة الملك Seonis Rogulus الذى تخضع له الملوك .

أما مثل شمعون ولاوى « فأخوان ، سيوفهما آلات ظلم فى مجلسهما لا تدخل نفسى . . لأنهما فى غضبهما قتلا إنسانا وفى رضاهما عرقبا ثورا . . . » .

وهذه إشارة إلى برج التوأمين ، وهو برج إله الحرب « زجال » عند البابليين ويصورون أحدهما وفى يده خنجر والآخر فى يديه سلاح شبيه بالمنجل . . وتشير عرقبة الثور إلى برج الثور الذى يتعقبه التوأمان[1]

(1) The oracles of Jacob by Eric Burrows.

وسواء صحت هذه الإشارات إلى الأبراج والنجوم أو كان فيها مظنة للخطأ والتجوز من المفسرين فالنبوءات عن مصائر الأبناء بأسمائهم واضحة لا تحتمل التكذيب .

وموسى الكليم طالبه القوم من إسرائيل وغير إسرائيل فى مصر بقدرة على السحر أعظم من قدرة السحرة وأصحاب الكهانة والتنجيم ، ثم جاوزوا تكليف الدلالة معه إلى تكليفه أن يهيئ لهم الطعام الذى يشتهونه صنوفا بعد صنوف وهم فى واد التيه ، بمأمن من جند فرعون .

واحتجاج القوم إلى علم الغيب فى عهد صمويل ليسألوه عن الماشية الضالة ويأجروه على ردها : « خذ معك واحدا من الغلمان وقم اذهب فتش عن الاتن . . فقال شاول للغلام . . . فماذا نقدم للرجل ؟ لأن الخبز قد نفد من أوعيتنا وليس من هدية نقدمها لرجل الله . ماذا معنا ؟ فعاد الغلام يقول : هو ذا يوجد بيدى ربع شاقل فضة » .

ولم يحفل بنو إسرائيل بالنبوءات بعد صمويل كما حفلوا بنبوءات أرميا وحزقيل ، وكلها نبوءات عن أخطار الحوادث التى تصيب قومهم وتصيب غيرهم من الأقوام أصحاب الدول فى وادى النيل وبين النهرين ، وكان الإنباء بالغيب على هذا المثال هو المهمة الأولى من مهام كبار الأنبياء ، وربما تحدث عن الغيب أنبياء من غير هذه الطبقة ليذكروا مصائر أفراد معلومين إلى جانب مصير الأمة كما قال النبى عاموس فى بيت إيل : « أنت تقول لا تتنبأ على إسرائيل ولا تتكلم على بيت إسحاق . . ولذلك قال الرب : إن امرأتك تزنى فى المدينة وبنيك وبناتك يسقطون بالسيف وأرضك تقسم بالحبل ، وأنت تموت فى أرض نجسة ، وإسرائيل يسبى سبيا عن أرضه . . . » .

نبرة الهداية

ختمت أيام هذه النبوءات جميعا فى بنى إسرائيل قبل البعثة الإسلامية بنحو تسعة قرون . لم تتغير خلالها نظرة الناس عامة وبنى إسرائيل خاصة إلى النبوة الدينية . ولم يفهموا النبوءات الأولى وما لحق بها غير الفهم الذى عهدوه فلما ظهرت النبوة الإسلامية لم تكن تكرارا لتلك النبوءات ولا تطورا فيها بل كانت « تنقية » لها من كل ما لصق بها من بقايا الكهانات والدعوات . وجاءت بمعنى النبوة كما ينبغي أن تكون ونفت عنها ما ليس ينبغى لها من شوائب الأوهام ، وأولها أنها مرصد للحوادث يحمى الطريق أو مكتب للتأمين يقارض القوم على الأمان من الأخطار .

ليست مهمة النبى أن يعلم الغيب « إنما الغيب لله » .

وليس أصدق من نبى يعلم الناس الصدق فيعلمهم مرة بعد مرة أن الغيب من علم الله يكشف عنه ما يشاء لمن يشاء .

« يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو » .

« قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » .

« قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلى قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » .

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » .

وآية الآيات مسألة « المعجزات » فى الدعوة المحمدية ، فليست المعجزة ممتنعة إذا أرادها خالق الكون كله وخالق السنن التى يجريه عليها ، ولكن المعجزة لا تنفع من لا ينفعه عقله ولا تقنع المكابر المبطل إذا أصر على اللجاجة فى باطله :

« ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » .

« ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا إنى معكم من المنتظرين » .

وقد كان الناس ينظرون إلى حوادث الفلك فيحسبونها من الآيات فنهاهم أن يخلطوا بين حوادث الفلك وحوادث الحياة والموت . وكذلك كسفت الشمس عند موت إبراهيم ابنه عليه السلام فقال الناس إنها كسفت لموته فلم يمهلهم أن يسترسلوا فى ظنهم وهو محزون الفؤاد على أحب أبنائه إليه بل أنكر عليهم ذلك الظن ورآها فرصة للتعليم ولم يرها فرصة للدعوة فقال : « إنما الشمس والقمر آيتان من آيات الله لاتنكسفان لموت أحد . . »

وخلصت النبوة كلها لمهمتها الكبرى وهى هداية الضمير الإنسانى فى تمام وعيه وإدراكه ، فانقطع مابينها وبين كل صناعة أو حيلة كان يستعان بها قديماً على التأثير فى العقول من طريق الحس المخدوع .

فليس فى النبوة سحر ولا كهانة ولا هى شعر يزخرفه قائله : « إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون » .

ولابد للمؤرخ أن يتريث عند كل وصف من أوصاف الأنبياء الذين كذب بهم أقوامهم ، لأنها جمعت كل ماقيل عن الأنبياء بين أولئك الأقوام فى العصور المتطاولة . فإذا صح أن جزيرة العرب لم تعرف الأنبياء كما عرفهم بنو إسرائيل وأن النبوءات كانت وقفا على بنى إسرائيل والمتنبئين غيرهم من الأمم . فمن أين عرفت أحوال الأنبياء والمتنبئين التى وصفهم بها المكذبون وقد وردت جميعا فى القرآن الكريم ؟

فمنهم من كان من المعلمين ويرميه مكذبوه بالجنون ! « أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون » .

ومنهم من كان يرمى بالسحر أو الجنون : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون »

ومنهم من كانوا يلحقونه بزمرة الشعراء ويرمونه بالجنون : « إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون » .

وإذا رموه بالسحر وحده قالوا إنه السحر الكاذب تمييزا له من السحر الذى كانوا يعترفون به لكهان معابدهم : « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب »

فالتعليم والشعر والسحر والكهانة والغيبوبة – كانت كلها سوابق واقعة موصوفة على ألسنة المكذبين من أقوام الرسل الأقدمين . ومن وصفها مخترعا فهذا هو العجب العجاب . ومن وصفها مطلعا فقد استقصاها وزاد عليها مالم يكن منها . وهو النبوءة الخالصة لهداية الضمير . . .

إن المتنبئين من الأقدمين لم يفصلوا النبوة بفاصل حاسم وأن من المتنبئين فى بنى إسرائيل لمن جمع بين الكهانة واستطلاع الغيب بالاقتراع فى المحراب . وعاش القوم بعد أنبيائهم بأزمنة طوال وهم لا يذكرون لهم رسالة أكبر من رسالة الإنذار بالحوادث والأخطار . فإذا كانت النبوة لم تخلص لمهمتها الكبرى قبل محمد عليه السلام فأين هى الكرامة التى تعلو على هذه الكرامة بين مراتب الأنبياء ؟

إن الرسالة المحمدية قد علمت الناس أن يعجبوا للنبوءات إذا لم تكن نبوءة للهداية وللإنذار والبشارة : « أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عن ربهم . . » .

وهذه هى النبوءة المحمدية .

وهذه هى النتيجة التى لم تأت من مقدمتها . أو هذه هى النتيجة التى لم تأت من جميع مقدماتها .

وهذه هى آية العمل الإلهى بين أعمال الناس .

سيد الأنبياء

نشأة الأنبياء

إن وجهة الدعوة النبوية تتبين من نشأة النبى التى أعده الله بها للقيام بتلك الدعوة ، فإذا عرفنا نشأة النبى بين قومه عرفنا رسالته فيهم وعمله فى هدايتهم ، وعرفنا وجهة النبوة من وجهة النبى منذ هيأه الله حيث جعله أهلا لرسالته .

ولكن غرائب التاريخ فى أمر الأنبياء كثيرة ، ومنها هذه الغريبة التى تكاد أن تشمل الأنبياء أجمعين . وهى الجهل التام بتفاصيل نشأتهم بين ذويهم وأقوامهم . فلا يحصى التاريخ شيئا من هذه التفاصيل عن نشأة نبى من كبار الأنبياء غير محمد عليه السلام ، وكل من عداه من جلة الأنبياء فالعلم بأنباء طفولتهم مستفاد من سيرته بعد النبوة أو مأخوذ مأخذ الاستقراء والاستنباط .

وعلى هذا يقل عدد الأنبياء الذين نحاول اختيارهم للمقابلة بين نشأتهم ومقاصد دعوتهم . ولانستطيع أن نزيد على ثلاثة من كبارهم وهم إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، وعلى بعض الأنبياء المذكورين فى العهد القديم فى مناسبات ظهورهم ، وبعض هذه المناسبات يدل على النشأة التى نشأوها والوجهة التى اتجهوا إليها .

مهما يكن من بداءة الخليل إبراهيم فالأقوال متواترة على زعامته

لقومه حين هاجر بهم من جنوب العراق إلى شماله ومن شماله إلى أرض كنعان .

كانت مهمته إذن مهمة الزعامة المفروضة على الزعيم ، وكان عليه أن يتولى هدايتهم فى شئون دنياهم وشئون دينهم ، وبخاصة حين يخشى الخطر عليهم من غضب الله ونقمته العاجلة من جراء المخالفة والعصيان

وينبغى أن نذكر هنا أن الوعيد بالغضب الإلهى كان خطرا محذورا قريبا ممن تعبدوا لجميع الأرباب فى الديانات الأولى . وأن إيمان الناس بالإله فى العهود الأولى إنما كان على أقواه إيمانا بحماية الرب الذى يعبدونه دون سائر الأرباب ، فلم يكن لزعيم مؤمن أن يغرر بقومه وهو يعلم سبيل نجاتهم . وقد كان إبراهيم الخليل زعيم اسرته الذين هاجروا معه . فكان عليه أن يهديهم الطريق ، وأن يهديهم كل طريق فى هجرة الجسد والروح :

وتتفق الأقوال على أن إبراهيم خالف أباه حين أنكر أرباب القوم ودعا قومه إلى الكفران بالأصنام . وليس فى هذا ما ينفى زعامته على الذين هاجروا معه من أسرته وذوى قرباه وتابعيه . فربما كان الخلاف على الإقامة والمصانعة وإرضاء ذوى السلطان بشىء من المداراة . فاستكان الشيخ للواقع ونفر الكهل القوى من هذه الاستكانة . وقد رأينا أن ثورة النفوس كانت تبلغ غاية مداها فى سلالة إبراهيم حين يؤمرون بعبادة إنسان أو إقامة الصنم مقام الإله الذى فى السماء . فلعل المفرق بين إبراهيم وأبيه إنما كان على عبادة جديدة أقحمت على القوم

من هذا القبيل ، فنحا المؤمنون بأنفسهم وتبعوا الخليل فى طريقه . وأدى لهم أمانة الزعامة بهذه النبوة وبهذه الرسالة

فهذه النبوة مهمة زعيم أمين .

نبوة موسى

ويريد فرويد أن يجعل قيادة موسى عليه السلام من قبيل هذه القيادة . ولكنه يذهب بعيدا حين يزعم أن موسى كان من المصريين الذين دانوا بعقيدة « أتون » وكفروا بعقيدة آمون . فلما نقض الكهنة على الوحدانية التى جاءت بها عقيدة أتون تحول موسى إلى المستضعفين من اليهود فى أرض مصر ينشر بينهم هذه العقيدة فى الإله الواحد ، وأضاف إليها ماتلقاه من علم بدين « يهو » حين نجا بنفسه إلى صحراء سيناء والتقى فى أرض مدين ببنى الصحراء .

ألف فرويد المشهور – وهو إسرائيلى – كتابا خاصا عن موسى والوحدانية Moses and Monotheism حاول فيه جهده أن يرجع بأصل موسى عليه السلام إلى الأسرة المصرية المالكة . وقال إن اسمه نفسه يدل على أصله المصرى لأنه مؤلف من كلمة ابن ومن اللاحقة التى تشبه اللواحق فى أسماء رعمسيس وتحتموسيس وأموسيس . وقصته فى الماء على رأى فرويد تقابلها فى البابلية قصة سارجون الملك الذى وضعته أمه على حافة النهر وحملت له مهدا عائما من السلال .

وقد توسع فرويد فى تخمينه فقال إن أدوناى التى أطلقها العبريون على الإله إنما هى أتون أو أتوم المصرية . وأن موسى عليه السلام وفق بين

عبادتين ليقنع بنى إسرائيل بدعوة أخناتون . وإلى هذا يرجع الاضطراب فى النصوص العبرية القديمة .

وليست طريقة فرويد فى تخمين التاريخ إلا أسلوبا آخر من طريقته فى كشف العقد النفسية بالتخمين والتأويل تفسيرا لبواطن المريض ، وقد يكون تفسير هذه البواطن قرينة على صحة الرجم بالغيب فى استكشاف الأمراض الباطنية ولكن تخميناته فى سيرة موسى عليه السلام لاتعتمد على قرينة ولا على ظن مقبول ، وليس لها سند من الآثار المصرية أو من الآثار العبرية ، وفى وسع من يشاء أن يخمن مثلها على هذا المنوال ويأتى بعشرين فرضا متضاربا من فروض الخيال .

أما سيرة موسى عليه السلام من المراجع الدينية فليس فيها ما يدل على زعامة معترف بها بين بنى إسرائيل ، بل فيها إنكار هذه الزعامة بالقول الصريح . لأنه أراد أن يحكم بين خصمين من العبرانيين فقال له أحدهما : « من جعلك رئيسا وقاضيا علينا ؟ ألعلك تريد قتلى كما قتلت المصرى بالأمس ؟ » .

ويرجح برستيد — أحد الثقات فى التاريخ المصرى القديم — أن موسى قد تخرج من المدارس المصرية الكبرى واطلع على مكنونات علم الكهنة والحكماء ، وكانت له منزلة فاضلة عند ولاة الأمر لعله كان يستخدمها فى الشفاعة لقومه والعلم بنيات الولاة وأوامرهم فيما يمس شئونهم ، فتعود عقلاؤهم أن يلجأوا إليه ويوسطوه ليستشفعوا به فيما ينوبهم من الظلم وسوء الحال ، وأصبح له حق الشورى عليهم كلما ارتبط الأمر بمشيئة الدولة ومطالب بنى إسرائيل .

وعلى خلاف الصورة التى تخيلها « ميكال أنجلو » للرسول العظيم يؤخذ من أوصافه أنه كان وديعا « حليما جدا أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض » كما جاء فى كتاب العدد من العهد القديم . وأنه كان يشكو حبسة فى لسانه فهو يقول عن نفسه كما جاء فى سفر الخروج : « لست أنا صاحب كلام منذ أمس ولا أول من أمس ولا من حين كلمت عبدك ، بل أنا ثقيل الفم واللسان . قال له الرب من صنع للإنسان فما ؟ . . أما أنا هو الرب . فالآن فاذهب وأنا أكون مع فمك وأعلمك ماتتكلم به . . . » .

ولم يخطر له بادئ الرأى أن يقود قومه فى خروجهم من مصر . ولم يكن على أهبة للرسالة الدينية قبل هجرته إلى صحراء سيناء ولقائه فى أرض مدين للنبى العربى الذى يرجح الأكثرون أنه هو نبى الله شعيب . ولكنه على مختلف الروايات قد تعلم من ذلك النبى علوما شتى فى شئون التبليغ والقيادة . ولم يزل يتعلم منه كما جاء فى كتب العهد القديم بعد عودته إلى مصر وخروجه منها مع قومه ، وكان يثوب إليه كلما ساورته المخاوف وأوشك أن ييأس من هداية القوم أو يضيق ذرعا بما يسومونه من شهوات الطعام ولدد الخصومة والمنافسة بين العشائر على صغائر الأمور .

فالسنوات التى قضاها إلى جوار نبى مدين كانت هى فترة الاستعداد والرياضة الروحية والتدبر الطويل فيما يمكن عمله لإخراج بنى إسرائيل من مصر وإحلالهم حيث حل على مقربة من سيناء وكنعان ، ولابد أنه قد جاس خلال تلك الصحراء ووطئ بقدميه أماكن الرحلة التى لابد منها قبل المقام على استقرار فى ذلك الجوار .

ولاشك أنه كان يصغى إلى نبى مدين فيما يبسطه له من أمر عقيدته وعبادته ، وأنه حكى له ما عرفه من العقائد المصرية وعبادات الهياكل والكهان ، ووازن طويلا بين هذه العبادات وعبادة البادية كما تلقاها من أستاذه المدينى ومن هداية الوحى والإلهام .

فلما عاد إلى مصر ليخرج بقومه منها كان هذا الخروج حيلة من لا حيلة له فى البقاء ، ودعاهم إليه باسم الله فأطاعوه بعد لأى ومجاهدة ، ولم يظهر من سلوكهم معه أنهم خفوا إلى الخروج من مصر طواعية بغير دعوة ملحة وإقناع عسير .

ولا يفهم من حادث واحد من حوادث الرحلة أن القوم كانوا يؤثرون الفرار حرصا على عقيدة دينية ، فإنهم أسفوا على ماتعودوه من المراسم الدينية فى مصر وودوا لو أنهم يعودون إليها أو يعيدونها مسوخة ممسوخة فى الصحراء ، وخطر لهم أن الإله الذى دعاهم موسى إليه إنما غرر بهم ليهلكهم ويعفى على آثارهم . واحتاجوا فى كل خطوة إلى توكيد الوعد بالأمان ورغد العيش بعد أعوام التيه والانتظار

فمهمة الرسالة الموسوية هذه العوارض الطبيعية لانفهم إلا على خطة واحدة ترتسم أمامنا كما كانت لأنها هكذا ينبغى أن تكون

هجر موسى مصر بعد مقتل المصرى وتهديد بنى إسرائيل ، قبل غيرهم بالإبلاغ عنه ، فضلا عما يخشاه من ملاحقة ولاة الأمور .

ولم يخطر له قبل تلك الهجرة أن يقنع قومه بالرحيل من الديار المصرية ، فلما اختبر الصحراء وسمع ما سمع من هداية نبى مدين ولمح بعينيه مطارح الرحلة والقرار بين مدين وسهوب سيناء وكنعان ، وطاب

له مقام البادية فلم يستعظم المشقة فى دعوة قومه إلى مثل هذا المقام . تدبر الأمر وصحح العزم على التحول بالقوم من مصر إلى أرض كنعان ، وصرف الجهد الذى لا جهد بعده فى إقناعهم باسم الإله الذى اختارهم للنجاة ، ولم يزل يحذر عليهم ترك هذا الإله عند أيسر دعوة وبغير إغراء على الترك فى أكثر الأحيان .

وهذه أمثلة من تحذيراته تدل على الجهد الجهيد فى تحويل قومه من العبادة التى كانوا عليها إلى العبادة التى دعاهم إليها .

فمن هذه التحذيرات فى سفر التثنية يقول لهم : « لا تسأل عن آلهتهم قائلا كيف عبد هؤلاء الأمم آلهتهم فأنا أيضا أفعل هكذا . لاتعمل هكذا للرب إلهك لأنهم قد عملوا لآلهتهم كل رجس مما يكرهه الرب »

وحذرهم من الأنبياء « فإذا قام فى وسطك نبى أو حالم حلما وأعطاك آية أو أعجوبة ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التى كلمك عنها قائلا لنذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدها فلا تسمع لكلام ذلك النبى . . »

وحذرهم من الأخ والابن والزوج والصاحب أن يغريهم قائلا : « نذهب ونعبد آلهة أخرى . . . فلا ترض منه ولا تسمع له ولا تشفق عينك عليه بل قتلا تقتله »

وحذرهم من المدن التى يدخلونها أن يدعوهم اللئام إلى عبادة أربابها : « فضربا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتحرمها بكل مافيها مع بهائمها بحد السيف »

وإذا سمع عن أحد من إسرائيل « أنه يذهب ويعبد آلهة أخرى

ويسجد لها أو للشمس والقمر أو لكل من جند السماء . . . فأخرج ذلك أو تلك المرأة . . . وارجمه بالحجارة حتى يموت »

* * *

ولا تتغير هذه الحقيقة بما يقال – تأييدا أو تفنيداً – لنسبة الكتب الخمسة الأولى من العهد القديم إلى موسى عليه السلام أو نسبة بعضها إليه وبعضها إلى الأنبياء من تلاميذه وتابعيه ، فإن أنبياء بنى إسرائيل جميعا من عهد موسى إلى مبعث عيسى عليه السلام لم تكن لهم من مهمة غير هذه المهمة ، وهى تحذير بنى إسرائيل من عبادة إله غير الإله الذى دعاهم إليه صاحب الشعيرة وتبكيتهم كلما انحرفوا عن طريقه واستبدلوا بملته ملة أرباب آخرين ، وهؤلاء إلياس وأرميا وحزقيل من أشد النعاة على بنى إسرائيل فى هذا الأمر لم يتجرد أحدهم لرسالة غير هذه الرسالة ، ولم يكن عمل إلياس إلا أن يحذرهم عاقبة « إغاظة الرب » إذ كان عمرى قد ملك على إسرائيل . . . وعمل الشر فى عينى الرب وبلغت سيئاته أضعاف سيئات من قبله وسار فى جميع طريق يربعام بن نباط وفى خطيئته التى جعل بها إسرائيل تخطئ لإغاظة الرب بأباطيلهم . . . وملك آخاب بن عمرى فاتخذ ابنة ملك الصيدونيين زوجة وسار وعبد البعل وسجد له وأقام مذبحا له فى بيت البعل الذى بناه فى السامرة »

ولم تكن رسالة أرميا إلا كهذه الرسالة حيث أنذرهم فى بعض مراثيه قائلا : « . . . إنكم تبخرون للبعل وتسيرون وراء آلهة أخرى لم تعرفوها . . . الأبناء يلتقطون حطبا والآباء يوقدون النار والنساء يعجن

العجين ليصنعن كعكا لملكة السموات ولسكب السكائب لآلهة أخرى كى يغيظونى . . . » ويمضى النبى منذرا متوعدا ناعيا على عشائرهم جميعا « أنهم أبوا أن يسمعوا كلامى وذهبوا وراء آلهة أخرى ليعبدوها ونقض بيت يهودا وبيت إسرائيل عهدى الذى قطعته مع آبائهم »

ومثل هذا الوعيد يسمع من كتاب حزقيل حيث يقول لشيوخ إسرائيل : « إنى آخذ بيت إسرائيل بقلوبهم لأنهم كلهم قد ارتدوا عنى بأصنامهم . . . وإن كل إنسان من بيت إسرائيل أو من الغرباء المتغربين فى إسرائيل يرتد عنى ويصعد أصنامه إلى قلبه . . . ويجئ إلى النبى ليسأله عنى فإنى أنا الرب أجيبه بنفسى وأجعل وجهى ضد ذلك الإنسان وأجعله آية ومثلا وأستأصله من وسط شعبى . . . فإذا ضل النبى وتكلم كلاما فأنا الرب قد أضللت ذلك النبى وسأمد يدى عليه وأبيده من وسط شعبى إسرائيل . . . »

فشعب بنى إسرائيل لم يستغن قط عن الإقناع المتتابع للإيمان بالإله الواحد الذى دعاهم إليه موسى عليه السلام ، ولم يتحرك من مصر فرارا بعقيدته بل كانت هذه العقيدة هى وسيلة الإقناع لحمله على النجاة بنفسه من عواقب البقاء حيث طاب له البقاء ، ولم يزل فى الطريق يحتاج إلى تجديد هذا الإقناع فى كل مرحلة ويحن إلى العودة بعد كل نقلة ، وظل كذلك بعد انتهاء أيام التيه وإيوائه إلى القرار عند أرض كنعان .

ونشأة موسى التى عرفناها من مصدرها الذى لا مصدر لنا غيره هى التى تطابق بين هذه النشأة وبين الرسالة الموسوية كما وضحت من الكتب المنسوبة إلى موسى والكتب التى نسبت إلى الأنبياء من بعده ، فخلاصة

هذه النشأة أن كليم الله تربى فى مصر وخرج منها خفية بعد مقتل المصرى الذى صرعه موسى انتصارا لرجل من بنى إسرائيل ، ولم يكن خاطر الخروج ببنى إسرائيل قد خطر له أو لأحد من ذوى الزعامة بين عشائر قومه ، ولكنه عاش فى البرية إلى جوار الهداية النبوية فى أرض مدين ، وراض نفسه على حياة النسك والاستلهام وهو يفكر فى أسرته وقومه ويزور الأرض من حوله ، وتلقى الدعوة الإلهية بعد طول التدبر والرياضة فعاد إلى مصر لإقناع قومه بدعوته وإقناع السادة الحاكمين بها أن تيسر له ذلك دفعا للخطر عن ملته وعقيدته . ولم يكن يرضيه فيما بدا من طوالع السيرة وخواتيمها أن يبقى شعب بنى إسرائيل حيث استطاب البقاء ، لأنهم رأى لهم مصيرا فى البادية أكرم من هذا المصير ورأى أن العقيدة التى دعاهم إليها كفيلة بجمعهم من الضياع بين العشائر والملل فى أرض البادية أو أرض الحضارة .

وهذا هو حكم التوفيق بين النشأة والرسالة فى حياة الكليم عليه السلام

وقد عرضت لنا فى خلال هذه السيرة قصة مدين ودعوتها النبوية التى أشارت إليها كتب إسرائيل من بعيد ولم تذكر بشىء من التفصيل فى غير القرآن الكريم . ولكنها جاءت بالنشأة والرسالة متوافقتين ذلك التوافق الذى يغنى عن كل دليل على صحة الأصل الأصيل

فلنا عن مدى القوافل فى كتابنا عن أبى الأنبياء إبراهيم الخليل :
« أما الأسباب السيئة التى أوجبت قيام الدعوات النبوية فى تلك المدن فهى أسباب كثيرة لم تكن توجد يومئذ فى غيرها بهذه القوة وبهذه الكثرة . وأقوى تلك الأسباب مساوئ الاحتكار والاستغلال . فإن تجارة العالم إذا توقفت على مدينة هنا ومدينة هناك سادت فى كل مدينة إلى فئة قليلة من السادة وأصحاب اليسار يحتكرون المقايضة والنقل ويبرعون فى أساليب المماكسة ورفع الأسعار وزيادة الضرائب والأجور على الرحال والمطايا وجند الحراسة . ويغتنم هؤلاء المحتكرون فرصتهم فيخدعون البسطاء ويحتالون على الأصول والشرائع ويأخذون بالجبن والشمال من الوارد والصادر والغادى والرائح ولا حيلة للتجار فيهم ولا لناقل التجارة لأنهم قابضون على الزمام وليس فى قدرة دولة أن تحاربهم إلا بالاشتباك فى حرب مع دولة أخرى أو بإنفاق أموال فى الغزو والحصار تزيد على الأموال التى يغتصبها المحتكرون أو يختلسونها . وقد يغلو هؤلاء المحتكرون فى الجشع والتحكم حتى يدفعوا الدول إلى المجازفة بالغارة مرة تريغها من مرات

« كذلك صنع أنتيجون خليفة الإسكندر مع أهم هذه المدن فى زمانه وهى سلع – أى البتراء – فجرد عليها حملتين ولم يفلح فى غزوها وهاجمها نزاجان بقوة كبيرة فدمرها وحول الطريق منها إلى بصرى ، ولم يبق من حولها غير مدن صغار »

إن آفة مدين هى هذه المدن على مدرجة الطرق وأن قصتها فى القرآن الكريم هى قصة التجارة المحتكرة والعبث بالكيل والميزان وبخس الأسعار والتربص بكل منهج من مناهج الطريق . وليس أدل على حدوثها من التوافق بين النشأة والرسالة كما جاءت فى مواضع مختلفة من السور وإحداها سورة الأعراف .

« وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره

قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الارض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين . وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا قال أو لو كنا كارهين قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شىء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين . وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذاً لخاسرون فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها . الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين »

* * *

فرسالة شعيب عليه السلام إنما كانت رسالة خلاص من شرور الاحتكار والخداع فى البيئة التى تعرضت له بحكم موقعها من طريق التجارة والمرافق المتبادلة بين الأمم . والأغلب على التقدير أن جزيرة العرب تعرضت لضروب من هذه الآفات وجاءتها الرسالات التى تصلحها فى إبان الحاجة إليها . ومنها رسالات هود وصالح وذى الكفل وإخوانهم من الرسل الصالحين الذين لم تقصص علينا أخبارهم فى كتاب

عيسى عليه السلام

وقد اختتم عهد النبوة والرسالة فى بنى إسرائيل بظهور عيسى عليه السلام . ولا نعرف عن نشأته فى طفولته غير القليل ولا نعرف شيئا عن أيامه من الثانية عشرة إلى الثلاثين مبعثه إلى قومه من بنى إسرائيل . ولكن نشأة العصر كله من وجه الاستعداد للنبوة معروفة ببعض التفصيل كما أشرنا إلى ذلك فى كتاب عبقرية المسيح

فى عصر الميلاد « ترقبت النفوس بشائر الدعوة الإلهية من كل جانب كما يترقب الراصدون كوكبًا حان موعد طلوعه » وكان موعد الألف الرابعة من تاريخ الخليقة موعداً مقدورا فى عرف الأكثرين لظهور الخلاص الموعود

وكان اليهود فى عصر الميلاد فريقين فريق يترقب الخلاص على يد رسول من ذرية داود عليه السلام . وفريق آخر وهم السامريون بنوا لهم هيكلا خاصا فى جرزيم . . . « ومن المحقق أن هؤلاء السامريين كان لهم شأن فى تطور الفكرة المسيحية أو فكرة الخلاص المنتظر على يد الرسول الموعود . . . وهم ينتسبون إلى يعقوب ويدعون أنهم دون غيرهم الجديرون باسم الإسرائيليين . . . »

وقد تكاثر النذيرون قبيل مولد السيد المسيح وهم المنذورون لصحبة المخلص المنتظر . لأن مولده عليه السلام « وافق نهاية الألف الرابعة من بدء الخليقة على حساب التقويم العبرى » وهو الموعد الذى كان منتظرا لبعثة المسيح الموعود . لأنهم كانوا ينتظرونه على رأس كل ألف سنة . ومنهم من كان يقول إن اليوم الإلهى كان ألف سنة كما جاء فى المزامير .

وأن عمر الدنيا اسبوع إلهى . تنقضى ستة أيام منه فى العناء والشقاء ويأتى اليوم السابع بعد ذلك كما يأتى يوم السبت للراحة والسكينة . فيدوم ألف سنة كاملة هى فترة الخير والسلام قبل فناء العالم . ولا يزال الغربيون يعرفونها باسم الألفية Mellinium ويطلقونها على كل عصر موعود بالسعادة والسلام ، والذين قدروا أن القيامة تقوم بعد سبعة آلاف سنة من بدء الخليقة كانوا يؤجلون قيام ملكوت السماء على الأرض إلى نهاية الألف السادسة ويومئذ تسود دولة المسيح الموعود ، لكنهم كانوا كغيرهم فى انتظار رسول من عند الله كلما انتهت ألف سنة من بدء الخليقة ، كانت بداءة الألف الخامسة موعدا منظورا أو منذورا يكثر فيه النذيرون ، لعلهم يحسبون من جند الخلاص أو لعل واحداً منهم يسعده القدر فيكتب الخلاص على يديه ، والمهم فى أمر النذيرين بالنسبة إلى السيد المسيح أن النبى يحى المغتسل – يوحنا المعمدان – كان علما من أعلامهم المعدودين ، وكان السيد المسيح يعتمد على يديه أو يأخذ العهد عليه ، وأن بعض المؤرخين يحسب السيد المسيح من النذيرين ويلتبس عليه الأمر بين النذيرى والناصرى وهما فى اللفظ العبرى متقاربان ، ومن هؤلاء المؤرخين من يزعم أنه لم يكن من الناصرة بل يزعم أن الناصرة لم يكن لها وجود لأنها لم تذكر قط فى كتب العهد القديم ، ولكن الأرجح فى اعتقادنا أن الناصرة نفسها كانت تسمى نذيرة بمعنى الطليعة عندما كانت على تخوم الأرض التى فتحها العبريون قديما ، وأنها كانت مرقبا صالحا للاستطلاع لأن التلول التى تحيط بها تكشف جبل الشيخ والكرمل والمرج المعروف باسم مرج ابن عمير . . .

ولاشك أن السيد المسيح قد اتجه بدعوته إلى إسرائيل وابتغى منها

الهداية « لخراف بيت إسرائيل الضالة » ولكنه عمم الدعوة بعد تكرارها على القوم ولجاجتهم فى الإعراض عنها ، فوجهها إلى كل مستمع لها مقبل عليها ، قال لهم إن العاملين بالخير ذرية لإبراهيم الخليل أقرب وأوفى ممن يدعون النسبة إليه بالسلالة ، لأنهم هم أبناؤه بالروح ، وضرب لهم المثل بوليمة العرس التى لم يحضرها المدعوون إليها . . . « فغضب السيد وقال لعبده : اذهب عجلا إلى طرقات المدينة وأزقتها وهات إلى بمن تراه من المساكين ، فعاد العبد وقال لسيده : قد فعلت كما أمرت ولا يزال فى الرحبة مكان . قال السيد فادع غيرهم من أعطاف الطريق وزواياه حتى يمتلئ بيتى ، فلن يذوق عشائى أحد من أولئك الذين دعوت فلم يستجيبوا الدعاء »

ولم تكن رسالة السيد المسيح رسالة تشريع ، لأن الشريعة الدينية كانت فى أيدى أحبار الهيكل والشريعة الدنيوية كانت فى أيدى أتباع قيصر ، ولكنه عليه السلام قد جاء بالفتح المبين الذى لم يسبقه إليه سابق من المرسلين فى تصحيح الشرائع بجملتها ، فقد حطم عنها قيود النصوص ونقلها إلى مقياسها الصحيح وهو مقياس الضمير ، ومن تحطيم النصوص أن يكون أبناء النبى هم أتباعه بالروح وإن لم يكونوا من ذريته بالجسد . ومن تحطيم النصوص كذلك أن يكون الخير فى ضمير الإنسان لا فى مظهر من مظاهر العالم فإن ملك ضميره فقد ملك كل شىء . وإن ضيع ضميره لم يغن عنه العالم بما وسع من أناس وحطام

رسالة النور الجديد

ومما تقدم تنجلى المطابقة بين النشأة والرسالة النبوية عن مقاصد ثلاثة تنطوى فى هذه الرسالات

فمنها الرسالة التى تنطوى فى تكاليف الزعامة ، فتأتى الدعوة الإلهية لتمكين زعيم القوم من هدايتهم الروحية لأنه مطالب بقيادتهم فى جميع الشئون

ومنها الرسالة التى تقوم على منفعة أمة من الأمم لحراستها فى وجه الأمم الأخرى ، والمثابرة على تذكيرها بحاجتها إلى تلك الحراسة

ومنها الرسالة التى ينتظرها القوم تحقيقا لوعود متعاقبة يفسرها كل منهم بما يبتغيه

ثم قامت بعد هذه الرسالات جميعا رسالة محمد عليه السلام ، فلم يستغرقها مقصد من هذه المقاصد ، إذ لم تكن تكاليف زعامة ولا رسالة مقصورة على منفعة أمة ، ولا تحقيقا لوعود منتظرة يفسرها كل واحد بما يبتغيه

رسالة محمد عليه السلام رسالة إلهية قوامها أن الله حق وهدى ، وأن الإيمان به جل وعلا مطلوب لأنه حق وهدى ، هذا الإيمان أعلى وأقدس من كل إيمان لأنه إيمان بالحق والهدى

لم تكن زعامة محمد على قومه مناط تلك الرسالة ، لأنه جاء بها بشرا كسائر البشر عليه من أمانة الهداية ما على الإنسان للإنسان زعيما كان أو غير زعيم

ولم تكن منفعة الأمة العربية مناط تلك الرسالة ، لأنها إيمان برب العالمين ، ولا فضل فيها لعربى على أعجمى ولا لقرشى على حبشى إلا بالتقوى

ولم تكن مقاضاة لوعود ، لأن الإسلام لم يعد أحدا من العالمين بغير ما وعد به الناس كافة فى جميع البقاع والأرضين

نزاهة العبادة

تعود بعد المصابين بداء الحذر من المؤرخين الغربيين أن يتكلموا عن نزاهة العبادة ويذكروا النعيم السماوى كما وصفه الإسلام بين النقائض التى تقدح فى العبادة النزيهة

وما من دين من الأديان خلا من مبدأ الثواب والعقاب ، وما من أمة من الأمم فى عصر الدعوة الإسلامية كانت صور النعيم السماوى عندها مقصورة على صورة واحدة تؤمن بها ولا تؤمن بغيرها

فليس الإيمان بالثواب والعقاب مخلا بنزاهة الدين ، وما من دين يستحق أن يسمى دينا يسوى بين الصالحين والمفسدين ، أو يحجر على النفوس أن تطمح إلى النعيم الذى ترتضيه

إنما الميزان الحق للعبادة النزيهة هو الصفة التى يتصف بها الإله المعبود ومن أجلها يتعبد له المؤمنون

وأنزه العبادات – ولا ريب – هى العبادة التى يدين بها المؤمن لله جل وعلا لأنه حق وهدى ، ولأن الإيمان به هو الصدق والصواب

هذه العبادة أنزه من العبادة التى تتجه بها الأمة إلى الله لأنه يقوم مقام الحارس فى وجه الأمم التى تخشاها ، وهى أنزه من العبادة التى تقوم على تقاضى الوعود أو العبادة التى تقوم على تعلق المرءوس بتكاليف الرئاسة والزعامة أمانة إنسان يدعو بها اخوانه فى الإنسانية ، ويرفع مكانها فوق مكان أنها نشأت فى جزيرة العرب حيث لا غرابة أن تكون الرسالة أمانة زعامة أو تكون حراسة أمة ذات عصبية أو تكون على

الإجمال منفعة محدودة فى وجه العالم كما تحد الصحراء ما حولها من البقاع والأرضين .

سيد المرسلين بحق من جاء بالرسالة المنزهة المثلى ، وهذه هى رسالة محمد بشهادة العقل حين يقابل بين القرائن والأمثال ، قبل شهادة المتدين لدينه أو المتعصب لعصبته والمقلد لما يمليه التقليد عليه

الوساطة

يقوم الإسلام على خمس فرائض : هى الشهادتان ، والصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج إلى بيت الله

ولا تتوقف فريضة من هذه الفرائض الخمس على وساطة بين الخالق والمخلوق .فحيثما وجد المسلم ففى وسعه أن يؤدى صلاته و « أينما تكونوا فثم وجه الله »

وإذا وجبت صلاة الجماعة فكل مسلم يحسن الصلاة يجوز له أن يؤم المصلين حيث اجتمعوا ، ولا يشترط اجتماعهم فى مسجد معلوم

ويحتاج المسلمون إلى الحاكم لتوقيت شهر الصيام ، ولكنهم يحتاجون إليه لأن وسائل الرصد والتعميم تتيسر له حيث لا تتيسر لكل فرد من أفرادهم ، شأنه فيما عدا ذلك كشأن جميع المسلمين

وإذا حج المسلم إلى بيت الله فليس فى بيت الله كاهن يقدم له قربانه أو يملى عليه شعائره ، وإنما يقرب لنفسه ويقوم بشعائره لنفسه ، فإن جهل حكما من أحكام الحج فإنما يسأل عنه سؤال المتعلم للمعلم ولا يحتاج فى قبوله إلى وساطة من وسيط

ويصح للمسلم أن يؤدى زكاته كما يصح له أن يسلمها لولى الأمر ليجمعها ويفرقها على مستحقيها ، ولا عمل له فيها يتمم به الفريضة بعد أدائها

° ° °

هذه الفرائض التى تنزهت عن الوساطة بين الإنسان وربه قد تفهم على أنها مصادفات متكررة على صعوبة التكرار والتوافق بين هذه المصادفات ، لولا أنها متممة مستوفاة بعقيدة التنزيه التى ارتفعت إلى غايتها فى الإسلام فالإله فى العقيدة الإسلامية منزه عن المشابهة والمقارنة والرمز والمحاكاة ، وليس كمثله شيء ، ولا وسيلة للإنسان إلى رؤيته من حيث لا يراه الآخرون

ومن العسير على بعض المشتغلين بالمقارنة بين الأديان من الغربيين أن يدينوا للإسلام بهذا التقدم الكبير فى تنزيه العقيدة وتنزيه الفكرة الإلهية ، وأيسر من ذلك عليهم إن يحسبوه ضرورة من ضرورات النشأة فى الصحراء ، حيث يتعود الحس التجريد ولا يرمز إلى الفخامة بروعة البناء

ولكن العقائد الدينية نشأت فى صحراء العرب وفى غيرها من الصحارى قبل الإسلام ، ولم تنشأ فى إحدى هذه الصحارى مجردة من شوائب الوثنية والطوطمية وضروب الكهانات والوساطات بين الإنسان وطبقات من الأرباب دون مقام الإله الواحد المنزه عن الأشباه والنظراء ، وكانت الكعبة فى مكة ملأى بالأصنام والأوثان يتخذونها كما يقولون لتقربهم إلى الله زلفى ولا يحسون أنها تناقض طبيعتهم الصحراوية فى التدين والعبادة

ومما فات أصحاب المقارنات أن يذكروه فى هذا الصدد أن الأمم التى تدين لسلطان الهياكل وتقدر على تفخيم البناء إنما كانت تثوب إلى هيكل واحد تتبعه سائر الهياكل ويستأثر كاهنه الأعلى بالوساطة بين اتباعه وبين الله ويضفى من قداسته ما يشاء على ما يشاء ، فإذا وجد فى الصحراء هيكل متفق عليه بين القبائل فهو أحرى أن يمتاز بالتعظيم والتقديس وأن تحيطه الندرة برعاية خاصة لا تظفر بها المعابد حيث يكثر البناء

* * *

وأولى من ذلك بالتنبيه أن الإسلام يحارب سيطرة توجد فى الهياكل وتوجد فى صوامع الصحراء وخيامها وفى التوابيت التى تحمل من مكان إلى مكان كتابوت بنى إسرائيل ، لأنها سيطرة الكهان والرهبان التى تسلط الناس على رقاب الناس باسم الدين . . « يأيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله » . . وكل مسلم منهى بحكم دينه أن يقتفى آثار الأمم الذين حكموا فيهم رؤساء دينهم و « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله »

فليس لرئيس الدين فى الإسلام من فضيلة غير فضيلة العلم والموعظة الحسنة وتنبيه الغافلين من ذوى السلطان : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » وتلك هى الفريضة العامة التى يندب لها

من يقدر عليها من ورثة الأنبياء ، وهم : « . . أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون »

* * *

هذا موقف للإنسان فى الكون كله بين يدى الله بغير وساطة ولا فاصل ولا حجاب ، تقدم به الإسلام ولم تمهده له البادية ولا المدينة ، ولكنه نتيجة من تلك النتائج الإلهية الكثيرة التى تقصر عنها السوابق والمقدمات

دين الإنسانية

قلنا فى صدر هذه الرسالة إننا نتبع فيها المقدمات ونقسمها إلى قسمين : مقدمات كافية لتفسير النتائج التى تأتى بعدها ، ومقدمات غير كافية لاتفسر جميع النتائج التى تلحق بها ، وقد تبدو هذه النتائج كأنها منقطعة عن تلك المقدمات أو مستغنية عن تفسيرها .

ونحن نرى فى فصول هذه الرسالة تفاوتا بين المقدمات فى كفايتها ، ولكنه لم يبلغ قط مبلغ التفاوت فى مقدمات دين الإنسانية ولا فى مقدمات النبوة كما بسطناها فى موضعها فلو أن جميع الأديان التى عرفها الناس قبل الدعوة المحمدية وضعت أمام الباحثين يومئذ لما استطاعوا أن يستخلصوا منها ظهور دعوة دينية تخاطب أمم الإنسانية جميعا من جزيرة العرب على الخصوص .

ومن الواجب أن نفرق بين دين التوحيد ودين الإنسانية فى هذه الخصلة ، فقد وجدت اديان تدعو الأمم إلى التوحيد قبل دعوة الإسلام ، ولكنها لم تكن تدعوهم لأنها تسوى بينهم وترى لهم حقا واحدا فى عبادتهم ، بل كانت تدعوهم إلى عبادة ملك واحد فى السماء وملك واحد فى الأرض ، كأنها مسألة سيادة لامسألة مساواة .

وقد جاءت الدعوة إلى التوحيد قبل الإسلام من طريق توحيد الدولة وفرض السلطان الواحد والعبادة الواحدة حيث تبسط سلطانها ، إذ كانت القبيلة القوية تتغلب على القبائل الصغار فتفرض عليها عبادة ربها وطاعة رئيسها ، ثم يتغلب الشعب القوى على الشعوب الصغيرة فيفرض عليها عبادة ربه وطاعة أميره ، ثم تمتد حدود الدولة وراء بلادها فتصبح

لها الصفة « العالمية » وتحسب الأرض كلها عالما واحدا خاضعا لشريعتها وشرائعها ، فلا يطاع فيه ملك غير ملكها ولايعبد فيه رب غير ربها ، ولايأتى هذا التوحيد على سبيل التسوية بين الغالب والمغلوب أو على سبيل الهداية والإرشاد ، بل يأتى على سبيل القهر والإخضاع وتجريد المغلوب من سادته فى الأرض وسادته فى السماء على السواء .

وعلى هذه السنة جرى الرومان على إخضاع اليهود حين فرضوا عليهم عبادة « الإمبراطور » فى هيكلهم ووضع الشارة الرومانية على محاريبهم ، فلم يفرضوا عليهم ذلك هداية لهم أو اعترافا بمساواتهم ، بل فرضوه لإخضاعهم وتحريم كل معبود فى الدولة غير معبودهم . وهكذا صنع الرومان فى مصر وبابل والبلاد الفارسية .

هذا « التوحيد » وجد قبل الإسلام .

ولكنه أبعد شيء عن دين الإنسانية الذى نعنيه ، وهو الدين الذى يتجه إلى جميع الأمم بدعوة واحدة على سنة المساواة بين الشعوب والأجناس والتماس الهداية للغالب والمغلوب ، فشتان دعوة إلى توحيد العبادة تقوم على السيادة والاستعباد ، ودعوة إلى توحيد الإنسانية فى حقوق واحدة وهداية واحدة وإيمان واحد بالله لا إله غيره يتساوى الناس بين يديه ولايتفاوتون بغير الفضل والصلاح .

لقد كان الإله عند العبريين يسمى إله إسرائيل ويخص من أبناء إبراهيم ذرية يعقوب بن إسحاق دون سائر العبريين .

قال يوشع : « هكذا قال الرب إله إسرائيل »
ويقول الشعب فى كتاب الأيام : « ألست أنت الهنا الذى طردت

سكان هذه الأرض أمام شعبك إسرائيل وأعطيتها لنسل إبراهيم خليلك إلى الأبد . . »

وقال داود فى سفر صمويل الأول : « مبارك الرب إله إسرائيل الذى أرسلك هذا اليوم »

وفى سفر الأيام : « خلصنا يا إله خلاصنا ، واجمعنا وأنقذنا من الأمم لنحمد اسم قدسك ونتفاخر بتسبحتك . . مبارك الرب إله إسرائيل من الأزل إلى الأبد . . »

ويطمئن بنو إسرائيل إلى هذه الحظوة وإن لم يستحقوها بولاء أو إيمان ، ويتنبأ المتنبئون والأنبياء فينعون عليهم خيانة الإله كما جاء فى سفر أرميا : « إن آباءكم قد تركونى وذهبوا وراء آلهة أخرى وعبدوها وسجدوا لها وإياى تركوا وشريعتى لم يحفظوها ، وأنتم أسأتم فى عملكم أكثر من آبائكم وها أنتم ذاهبون كل واحد وراء عناد قلبه الشرير حتى تسمعوا لى . . »

ولكنهم يعودون فيسمعون من صاحب النذير أن الله يريدهم شعباً له : « واجعل عينى عليهم للخير وأرجعهم إلى هذه الأرض وأبنيهم ولا أهدمهم وأغرسهم ولا أقلعهم وأعطيهم قلبا ليعرفونى أنى أنا الرب فيكونوا لى شعبا وأنا أكون لهم إلها لأنهم يرجعون إلى بكل قلوبهم . . »

ودامت هذه العقيدة إلى عصر الميلاد فتهيأت العقول لعقيدة أرفع منها وأعدل وأقرب إلى المساواة بين الناس ، فكان يحيى المغتسل (يوحنا المعمدان) يزعزع هذه الثقة بالخلاص لغير سبب من عمل أو إيمان ، ويخاطب القوم كلما تمادوا فى اغترارهم بالنسبة إلى إبراهيم الخليل قائلا :

إن الله قادر على أن يخلق لإبراهيم أبناء من حجارة الأرض ، فإن لم يخلصوا فى إيمانهم فلا أمل لهم فى الخلاص .

وتحولت الدعوة المسيحية من بنى إسرائيل إلى الأمم على الرغم من بنى إسرائيل ، لأن السيد المسيح شبههم بالمدعوين الذين أقيم لهم العرس فتعللوا بالمعاذير وتخلفوا عن اجابة الدعوة : « فقال هذا إنى اشتريت حقلا وعلى أن أخرج فأنظره . . وقال ذاك : إنى اشتريت ازواجا من البقر وسأمضى لأجربها . . فغضب السيد وقال لعبده : اذهب عجلا إلى طرقات المدينة وأزقتها وهات إلى من تراه من المساكين . . فعاد العبد وقال لسيده : قد فعلت كما أمرت ولايزال فى الرحبة مكان . قال السيد : فادع غيرهم من أعطاف الطريق وزواياه حتى يمتلىء بيتى فلن يذوق عشائى أحد من أولئك الذين دعوت فلم يستجيبوا الدعاء »

ولم تتحول الدعوة المسيحية عن بنى إسرائيل إلا بعد إعراضهم عنها وإصرارهم على الإعراض فى كل بقعة من بقاع فلسطين توجهت إليها دعوة السيد المسيح وتلاميذه . أما قبل ذلك فكانت الدعوة مقصورة عليهم صريحة فى تقديمهم على غيرهم من الأمم : « ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحى صور وصيداء . وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة : ارحمنى ياسيد ! ياابن داود . ابنتى مجنونة جدا ، فلم يجبها بكلمة . فتقدم إليه تلاميذه وطلبوا إليه قائلين : اصرفها لأنها تصيح وراءنا . فأجاب وقال : لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة فأتت وسجدت له قائلة : ياسيد ! أعنى . . فأجاب وقال : ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب . . فقالت

نعم ياسيد . والكلاب أيضا تأكل من الفتات الذى يسقط من مائدة أربابها . حينئذ أجاب يسوع وقال لها : يا امرأة عظيم إيمانك . ليكن لك ماتريدين . . »

وتحولت دعوة السيد المسيح ودعوة الرسل المسيحيين إلى الأمم غير مقصورة على بنى إسرائيل ، ولكنهم كانوا يدعون الأمم لأنهم أحق بإبراهيم من أبنائه بالجسد ، إذ كان المستجيبون للدعوة أبناء إبراهيم بالروح .

° ° °

واذا روجع تاريخ الأديان قبل ألفى سنة لم يوجد منها دين واحد خرجت دعوته من نطاق القومية فعمت شعوب الإنسانية على اختلاف أصولها وأجناسها .

وقد وجدت فى الصين شعوب بلغت فى ذلك العهد مائة مليون أو تزيد ، ووجدت فى الهند شعوب تقاربها فى العدد ولم يعرف هؤلاء ولا هؤلاء دعوة الإنسانية إلى دين واحد بل كانت الصين تدين بعبادة الأسلاف كل بيت له هيكله وعبادته على حدة . وكانت ديانة الهند ديانة الطبقة الغالبة ينفرد الأحبار بتلاوة أسفارها ويحرمون على الطبقات المحرومة تلاوتها والتعرض لفهمها وتفسيرها ، ويقول جوتاما ريشى فى بعض كتب الفيدا : « إذا سمع الفيدا رجل من المنبوذين فمن واجب الملك أن يصب الرصاص المذاب فى أذنيه » .

° ° °

هذه مقدمات الدعوات الدينية قبل الدعوة المحمدية بعدة قرون . وتقف المقدمات عند هذه الدعوات . ثم يستمع الناس إلى دعوة من أعماق جزيرة العرب تنادى بنى الإنسان جميعا إلى دين واحد وإله واحد وحق واحد :

« يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم »

« وما أرسلناك إلا كافة للناس »

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »

ويفصل رسول الدعوة آيات الكتاب الذى أنزل إليه فيقول فى تفسير هذه الآيات : « لافضل لعربى على أعجمى ولا لقرشى على حبشى إلا بالتقوى » .

ولو لم يكن من سعة المسافة بين المقدمات وهذه النتيجة غير هذا الذى أجملناه لكان فيه الكفاية .

لكن العجب منه يتضاعف ويتعاظم حين تأتى النتيجة من أعماق الجزيرة العربية حيث مشتجر الأنساب والأعراق على نحو لم يعرف له مثيل بين الأمم والعصبيات .

وبقية تبقى بعد ذلك لعجب فوق ذلك العجب المتضاعف المتعاظم . فإن الرسول الذى نادى بهذه المساواة بين الأصول والأمم لم يكن دون أحد من أبناء الجزيرة كلها حسبا ونسبا من أبويه الشريفين . بل كان من شرف الأبوة فى الذؤابة التى يعترف بها النظراء ويعنو لها

المكابرون . . . وهذا الرسول هو الذى يتعلم منه الناس إنهم إذا صلحوا واستقاموا : « فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون »

المسئولية الفردية

وللديانة الإنسانية مناط واحد هو ضمير كل فرد من أفرادها ، فالم يكن هذا الضمير حساب وعليه تبعة فلا ديانة لإنسان ولا لجملة الناس .

وفكرة التبعة الفردية ، والمسئولية الفردية بسيطة سهلة الفهم تتجدد الحاجة إلى تطبيقها كل يوم فى كل بيئة اجتماعية فلو كانت الفكرة تروج بمقدار بساطتها وسهولة فهمها وتجدد الحاجة إلى تطبيقها لما خلا المجتمع الإنسانى قط من مبدأ المسئولية الفردية منذ أوائل عهد الإنسان الاجتماع .

لكن الواقع أن هذه الفكرة البسيطة قد أهملت وظلت مهملة من عهد البداوة إلى عهود الحضارة الأولى . لأن محاسبة الفرد لم يكن لها مرجع إلى سلطان واحد . إذ كان الفرد من القبيلة يعتدى على فرد من قبيلة أخرى ويندر أن ترضى قبيلة المعتدى أن تسلمه إلى قبيلة المعتدى عليه ، فإن لم تسلمه « تضامنت » فى الدفاع عنه ووقعت الحرب بين القبيلتين أو تعرض كل فرد من أفراد قبيلة المعتدى لأخذ الثأر منه ، وقد يتوارثون الثأر إلى الأبناء والأعقاب .

فقضى نظام القبيلة على « مسئولية » القبيلة كلها عن جميع أفرادها ، ثم تطورت القبيلة وتألف الشعب من جملة قبائل متعارفة على نظامها القديم . فثبتت على عاداتها لصعوبة التغيير فى الجماعات التى تقوم على

المحافظة ورعاية المأثورات السلفية . وبلغ من ثبات هذه العادات أن رومة – التى كانت تسمى ام الشرائع – جعلت الأب مسئولا عن الأسرة وأباحت له التصرف فى أرواحها وأموالها . وقد ناظرتها فى الشرق شريعة حمورابى فجعلت من حق الرجل الذى تقتل بنته أن يتسلم بنت القاتل ليقتلها كأنها لاتحسب عندهم إنسانا مستقلا بحياته .

وكانت فى الهند حضارات تأخذ بمبدأ المسئولية الفردية ولكنها ترجع بها إلى حياة سابقة متسلسلة من حياة سابقة على مدى الأزمنة التى لاتعرف لها بداءة منذ أزل الآزال . فهو مولود بجرائره وآثامه وكفارة تلك الجرائر والآثام إلى الأجل المقدور . وليست تبعاته مرهونة بما يعمله بعد ميلاده بل هى سابقة للميلاد لاحقة به آمادا بعد آماد .

وعلى هذا تعاقبت الأجيال على اهمال المسئولية الفردية فى أطوار البداوة وأطوار الحضارة . ولم تعرف حضارة واحدة دانت بهذه المسئولية على النحو الذى نفهمه الآن أو على نحو قريب منه غير الحضارة المصرية فى عصور الأسر القديمة . ثم طواها الزمن وطوى معها شرائعها فلم يبق منها إلا اليسير .

° ° °

ولا نطيل فى شرح « المسئولية الفردية » كما اعتقدها أناس من المتدينين الكتابيين قبل الإسلام . ولكننا نشير إلى طرف منها للإبانة عما انتهت إليه واستقرت عليه عند ظهور الدعوة الإسلامية .

ففى سفر التكوين أن « نوحا شرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه ، فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجا . . فلما

استيقظ نوح من خمره علم مافعل به ابنه الصغير فقال ملعون كنعان . عبد العبيد يكون لإخوته . . . »

وفى سفر يشوع أن « عاخان » سرق من غنائم القتال فى وقعة عاى فانهزم الإسرائيليون . . . « وأجاب عاخان يشوع وقال حقا إنى قد أخطأت إلى الرب إله إسرائيل . . رأيت فى الغنيمة رداء شنعاريا نفيسا ومئتى مثقال من الفضة ولسان ذهب وزنه خمسون مثقالا فاشتهيتها وأخذتها وهاهى مطمورة فى الأرض وسط خيمتى والفضة تحتها . . . فأخذ يشوع عاخان بن زارح والفضة والرداء ولسان الذهب وبنيه وبناته وبقره وحميره وغنمه وخيمته وكل ماله وجميع إسرائيل معه وصعدوا بهم وادى عجور . . . فقال يشوع : كيف كدرتنا يكدرك الرب فى هذا اليوم . فرجمه جميع إسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار ورموهم بالحجارة وأقاموا فوقه رجمة حجارة عظيمة إلى هذا اليوم . فرجع الرب عن حمو غضبه »

* * *

وكان القول الشائع أن عصيان آدم جريرة لايسأل عنها وحده ، بل يسأل عنها كل ولد من ذريته .

أما الدعوة الإسلامية فالمسئولية الفردية فيها شىء جديد كل الجدة لم يتطور مما تقدمه ولم يكن نتيجة قط لإحدى هذه المقدمات ، ومعجزة المعجزات فيها إنها قامت بالمسئولية الفردية حيث يصدها كل عرف قائم ويعوقها كل نظام مصطلح عليه فى المعاملات والعقوبات .

قامت بها فى أعماق الجزيرة العربية ، ولاقانون فيها غير قانون الثأر ولاشريعة لها غير شريعة القبيلة . وتعلم الناس لأول مرة فى تاريخ البداوة والحضارة « أن ليس للإنسان إلا ماسعى » وأن جيلا من الأجيال لايؤخذ بجريرة أسلافه ولا يؤخذ خلفاؤه بجريرته : « تلك أمة قد خلت لها ماكسبت ولكم ماكسبتم ولاتسألون عما كانوا يعملون »

و « كل امرئ بما كسب رهين »

* * *

مرحلة شاسعة لم يعمل فيها تاريخ البشرية كله ماعمله الإسلام وحده مبتدئا بغير سابقة ، بل مبتدئا على الرغم من العوائق والموانع والمناقضات .

ولم تكن هذه المرحلة الشاسعة نافلة من نوافل الرأى على حواشى العقيدة ، ولكنها هى الفتح الأكبر من فتوح الضمير فى جميع مراحل التاريخ . إذ لاقوام للخلق ولاللدين بغير التبعة ، ولامعنى بغير التبعة لتكليف ولاحساب .

الكعبة

ونعود بعد هذه المقدمات جميعا إلى حديث الكعبة أو الكعبات التى ثابت إلى قبلة واحدة : هى قبلة الكعبة المكية خاتمة المطاف .

يدور البحث مايدور فى تاريخ العرب الدينى ثم يتصل من احدى نواحيه بتلك البيوت التى تعرف ببيوت الله ، أو البيوت الحرام ، ويقصدها الحجيج فى مواسم معلومة يشترك فيها القبائل من سكان البقاع القريبة ، ويتعاهدون على المسالمة فى جوارها .

وكان منها فى الجزيرة العربية عدة بيوت مشهورة ، وهى بيت الأقيصر وبيت ذى الخلصة وبيت صنعاء وبيت رضاء وبيت نجران وبيت «مكة» أشهرها وأبقاها ، عدا بعض البيوت الصغار التى يعرفها الرحالون ولاتقصد من مكان بعيد.

وكان بيت الأقيصر فى مشارف مقصد القبائل من قضاعة ولخم وجذام وعاملة ، يحجون إليه ويحلقون رؤوسهم عنده ويلقون قبضة من الدقيق مع كل شعرة ، وهو الذى عناه زهير بن أبى سلمى بقوله :

حلفت بأنصاب الأقيصر جاهدا
وما سحقت فيه المقادم والقمل !

وبيت «ذى الخلصة» كان يدعى بالكعبة اليمانية فى أرض خثعم بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة ، وروى البخارى أن النبى عليه الصلاة والسلام أمر بهدمه فهدم ، وأن الذين كانوا يسمونه بالكعبة

اليمانية كانوا يطلقون اسم الكعبة الشامية على كعبة مكة تمييزا بين الكعبتين .

وكان بصنعاء بيت رئام يحجون إليه وينحرون عنده فطلب حبران «يقرءان التوراة» من ملك اليمن أن يأمر بهدمه «لأنه شيطان» يفتن الناس ، فأذن لهما فهدماه .

وفى بيت رضاء يقول المستوغر بن ربيعة بن كعب حين هدمه بعد الإسلام :

ولقد شددت على رضاء شدة   فتركتها قفرا بقاع أسحما
وأعان عبد الله فى مكروهها   وبمثل عبد الله أغشى المحرما

أما كعبة نجران فقد تعفت آثارها وكشفها الرحالة عبد الله فلبى فى رحلته (٢٥ يونية سنة ١٩٣٦) وهى التى قال فيها الأعشى يخاطب ناقته :

فكعبة نجران حتم عليـ   ـك حتى تناخى بأبوابها
نزور يزيد وعبد المسـ   ـيح وقيساهمو خير أربابها

ويقول بعض المؤرخين – ومنهم أبو المنذر – إن هذا البيت وبيت سنداد بين الكوفة والبصرة لم يكونا من بيوت العبادة وإنما كانا من المزارات الشريفة التى يذكرها السياح .

اسم الكعبة

وقد ذهب المؤرخون مذاهب شتى فى تفسير اسم الكعبة : فقال بعضهم إنها كانت كلمة رومية أطلقت على كعبة مكة لتكعبها ، وأن بناء

من الروم عمل فى بنائها وهندستها فاستعير اسمها من اللغة الرومية ، وقيل بل كان بناؤها من الحبشة ومنها – أى من الحبشة – عرف العرب بناء هذه المعابد وأمثالها لأنهم أمة خيام لم تتأصل بهم صناعة البناء .

وهؤلاء المؤرخون وأشباههم يتشبثون بالفرع ويغفلون الأصل بجذوره وجذوعه عليه .

فمهما يكن من لغة البناء الرومى أو الحبشى فالقبائل العربية لم تبن تلك البيوت لأن البناء من الروم أو من الحبش ، ولم ترد أن تنشئ لها بيتا يسمى « الكعبة » أو المكعبة فى اللغة الرومية ، وإنما وجدت الحاجة إلى البيت الحرام ثم وجدت الوسيلة إلى تلك الغاية ، ولو لم يبنه أحد من الروم أو الحبش لبناه أحد من فارس أو مصر أو الهند أو غيرها من الأمم التى تقدمت فى هذه الصناعات . وقد احتاج سليمان بن داود إلى بناء هيكله فاستعان بالصناع العاملين فى الحجر والمعدن والحديد من شواطىء البحر الأبيض إلى جواره فى الشمال ، ولم تقم العقيدة تبعا لأصحاب الصناعة بل كان أصحاب الصناعة جميعا ممن يخالفون تلك العقيدة ويتسمون بسمة الكفر والإنكار عند المعتقدين بها .

ولم نعرف أن معبدا سمى بشكله أو كان له شكل غير أشكال الأبنية التى يغلب عليها التكعيب مع بعض الاستطالة ، وليست مادة « كعب » بالغريبة عن اللغة العربية لأنهم كانوا يعرفون كعوب القناة ويسمون الفتاة كاعبا إذا كعب ثدياها ويلعبون بالكعوب ويتسلحون بالرماح وهى من القصب أو من الأقنية ، فيغلب أن يكون اليونان هم الذين أخذوا من العرب كلمة الكعب وكلمة القناة فتصحفت فى لغتهم إلى القانون وهو العصا التى تتخذ للقياس .

ومهما يكن من أصول هذه الأسماء والأشكال ، فالأمر الذى لا يجوز فيه الشك أن « البيوت الحرام » وجدت فى الجزيرة العربية لأنها كانت لازمة ولم توجد فيها العبادات والمعبودات لأن أحدا اخترعها لتعبد وتقصد ، وإنما كانت العبادات والمعبودات مرعية موروثة ثم أقيم لها المكان الذى تعبد فيه وتقصد من أجله .

وقد اجتمع لبيت « مكة » من البيوت الحرام مالم يجتمع لبيت آخر فى أنحاء الجزيرة . لأن مكة كانت ملتقى القوافل بين الجنوب والشمال وبين الشرق والغرب ، وكانت لازمة لمن يحمل تجارة اليمن إلى الشام ولمن يعود من الشام بتجارة يحملها إلى شواطئ الجنوب ، وكانت القبائل تلوذ بها بمثابة مطروقة تتردد عليها ولم تكن فيها سيادة قاهرة على تلك القبائل فى باديتها أو فى رحلاتها . فليست فى مكة دولة كدولة التبابعة فى اليمن أو المناذرة فى الحيرة أو الغساسنة فى الشام ، وليس من وراء أصحاب الرئاسة فيها سلطان كسلطان دولة الروم أو دولة فارس أو دولة الحبشة وراء الإمارات العربية المتفرقة على الشواطئ أو بين بوادى الصحراء . فهى – أى مكة – مثابة عبادة وتجارة وليست حوزة ملك يستبد بها صاحب العرش فيها ولا يبالى من عداه ، وهى إن لم تكن كذلك من أقدم أزمانها فقد صارت إلى هذه الحالة بعد عهد جرهم والعماليق الذين روى عنهم الرواة أنهم كانوا يعشرون كل مادخلها من تجارة .

•

كانت « مكة » عربية لجميع العرب ولم تكن كسروية ولا قيصرية

ولاتبعية ولانجاشية كما عساها كانت تكون لو استقرت على مشارف الشام أو عند تخوم الجنوب ، ولهذا تمت لها الخصائص التى كانت لازمة لمن يقصدونها ويجدون فيها من يبادلهم ويبادلونه على حكم المنفعة المشتركة لا على حكم القهر والإكراه.

ولقد حاولت الدول الكبرى أن تستغنى عنها بتحويل الطريق منها أو هدم كعبتها فلم تفلح وبقيت لها مكانتها وقداستها كما كانت من أقدم عهودها وهى قديمة سابقة لكتابة أسفار العهد القديم فى التوراة ، فإنها هى «ميشة» المشار إليها فى سفر التكوين وهى «ميشا» التى يقول الرحالة «برتون» إنها كانت بيتا مقصودا لعبادة أناس من أبناء الهند ، ويقول الرحالون الشرقيون إنها كانت كذلك بيتا مقصودا للصابئين الذين أقاموا فى جنوب العراق قبل الميلاد بأكثر من عشرة قرون . ونرجح نحن ترجيح الظن أن سكان شواطئ الهند وخليج فارس وجدوا فيها ساحة لعبادة أربابهم العلوية وأفلاك السماء كلما ترددوا عليه فى تجارتهم من أقدم عهود التاريخ . فكان حكمهم فيها حكم القبائل البادية التى وجدت فيها محلا لعبادة أوثانها فى مواسم الحج والإحرام.

ومن المحاولات التاريخية التى لاشك فى بواعثها محاولة عام الفيل ومحاولة عثمان بن الحويرث أن يدخل مكة فى حوزة الروم وأن تستولى دولة الروم من ثم على تجارة المشرق كلها من شواطئ اليمن إلى مشارف الشام.

فالحبشة كانت تخشى نفوذ الفرس فى اليمن وكانت تلقى من دولة الروم معونة على مقاتلة التابعة اليمانيين . وكانت تحذر دولة الروم لأنها

كانت تملك الوصول إلى بلادها من وادى النيل وتملك طريق البحر الأحمر فى نهايته القصوى . فلما خرجت جيوش الحبشة بقيادة أبرهة وأرياط كانت دولة الروم من وراء هذه الغزوة وانتهت بهزيمة ذى نواس ملك اليمن فاقتحم البحر بجواده ليغرق فيه ، وسفر أبرهة عن غايته بعد التمكن من اليمن وشرطتها فبنى «القليس» فى صنعاء ويجوز أن تكون مصحفة من كلمة الكليس اليونانية بمعنى المعبد والمجمع أو من كلمة كلس بمعنى التكليس أو الطلاء. فلما تم بناؤها أمر بتحويل الحج إليها وكتب إلى النجاشى يقول : «إنه ليس بمنته حتى يصرف إليها العرب أجمعين» . . . فقيل فيما قيل إن أناسا من العرب كانوا يذهبون إلى هذه الكعبة الجديدة ليدنسوها وأن سيدا من سادات تميم فعل ذلك وتحدى أربابها أن تصيبه بأذاها إن كانت لها قدرة الأرباب . فكان من جراء ذلك مجرد أبرهة على مكة فى عام الفيل المشهور.

هذه محاولة لاشك فى الغرض منها وهو الاستيلاء على طريق الحجاز من اليمن إلى الشام.

والمحاولة الأخرى كانت من محاولات السياسة الخفية لتمليك سيد من العرب على مكة يدين بالولاء لدولة الروم . فارتضى قيصر لملك مكة رجلا من ساداتها هو عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى . وكتب له رسائل يبلغها قومه فعاد بها وجمع القوم إليه يرغبهم فى حسن الجزاء من قيصر وينذرهم بسوء العاقبة فى الشام إذا هم عصوه وأهون ماهنالك أن يغلق أبوابها فى وجوههم وهم يذهبون إليها ويعودون منها كل عام . قال : «ياقوم ! إن قيصر قد علمتم أمانكم ببلاده وما تصيبون

من التجارة فى كنفه ، وقد ملكنى عليكم وأنا ابن عمكم وأحدكم ، وإنما آخذ منكم الجراب من القرظ والعكة من السمن والأرهاب فأجمع ذلك ثم أذهب إليه ، وأنا أخاف إن أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشام فلا تتجروا به وينقطع مرفقكم منه » .

وهذه المحاولة السياسية غرضها كما هو ظاهر كغرض تلك المحاولة العسكرية ، وكلتاهما تثبت شيئا واحدا وهو قيام كعبة الحجاز على كره من ذوى السلطان فى الجنوب ، وأن دولة الروم لم تكن تريدها باختيارها وإنما كانت مشغولة بها معنية بتحويلها إلى حوزتها فلم تستطع أن تنال منها منالها ، واستطاعت « الكعبة » أن تحفظ مكانها على الرغم من خلو مكة من العروش الغالبة على أنحاء الجزيرة بجميع أطرافها ، بل استطاعت ذلك لخلوها من تلك العروش وقيام الأمر فيها على التعميم دون التخصيص وعلى تمثيل جملة العرب بمأثوراتهم ومعبوداتهم دون أن يسخرهم المسخرون من يستبد بهم فريق يسخرهم تسخير السادة للاتباع المكرهين على الطاعة وبذل الإتاوة .

قداسة الكعبة

والأساس المهم الذى قامت عليه مكانة البيت المكى أن البيت بجملته كان هو المقصود بالقداسة غير منظور إلى الأوثان والأصنام التى اشتمل عليها ، وربما اشتمل على الوثن المعظم يقدسه بعض القبائل وتزدريه قبائل أخرى فلا يغض ذلك من مكانة « البيت » عند المعظمين والمزدرين ، واختلفت الشعائر والدعاوى التى يدعيها كل فريق لصنمه ووثنه ولم تختلف شعائر البيت كما يتولاها سدنته المقيمون إلى جواره

والمتكلفون بخدمته . فكانت قداسة البيت هى القداسة التى لا خلاف عليها بين أهل مكة وأهل البادية ، وجاز عندهم ، من ثم ، أن يحكموا بالضلالة على اتباع صنم معلوم ويعطوا البيت غاية حقه من الرعاية والتقدير . . .

وعلى هذا كان يتفق فى موسم الحج أن يجتمع حول البيت أناس من العرب يأخذون بأشتات متفرقة من المجوسية واليهودية والمسيحية وعبادات الأمم المختلفة ولا يجتمع منها دين واحد يؤمن به متعبدان على نحو واحد . وما من كلمة من كلمات الفرائض لم تعرف بين عرب الجاهلية بلفظها وجملة معناها كالصلاة والصوم والزكاة والطهارة ومناطها كلها أنها حسنة عند رب البيت أو عند الله . وجاء فى صحيح مسلم عن عبد الله بن الصامت أن أباذر قال له : « يا ابن أخى ! صليت مرتين قبل مبعث النبى ﷺ . فسأله : فأين كنت توجه ؟ قال : حيث وجهنى الله ! » .

وجاء فى الأغانى أن زيد بن عمرو بن نفيل كان يستقبل الكعبة فى صلاته ويقول :

لبيك حقا حقا تعبدا ورقا

عذت بما عاذ به إبراهيم مستقبل الكعبة وهو قائم

يقول إنى لك عان راغم مهما تجشمنى فإنى جاشم

وذكر صاحب كتاب حجة الله البالغة أنهم كانوا يصومون يوم عاشوراء . وكان صيامهم من الفجر إلى مغرب الشمس . وكانت لهـ

بقايا من العبادات التى عرفت بين أهل الكتاب أو لم تكن معروفة على وتيرة واحدة بين أتباع دين من الأديان. وإنما يرغبهم فيها أنها أعمال ترضى «الإله» وأنهم يعرفون إلها أعظم من سائر الآلهة يتوجهون إليه بالدعاء. وهى حقيقة لا يعتورها الشك لأنهم كانوا يسمون «عبد الله» ويلبون فيقولون اللهم لبيك. ولا يدعون أحدا من الأصنام «رب البيت» فإذا قالوا «رب البيت» أرادوا به ربا فوق جميع الأرباب.

إننا فى هذه الرسالة نذكر المقدمات ونقسمها كما قلنا فى مفتتحها إلى قسمين: قسم ينقطع دون النتائج التى جاءت بعده، وقسم يتصل بنتائجه ويشير من مبدأه إلى غايته فى مجرى الحوادث. وليس بين هذه المقدمات المتصلة ماهو أحكم اتصالا بين أوائله وخواتيمه من قيام البيت فى مكة وتوثيقه قبائل العرب على حرمة واحدة.

وقد سميت الكعبة «الحمساء» وانتسب إليها «الحمس» وهم طوائف متشددون فى فرائضهم وخلائقهم يدينون أنفسهم بالتقشف والزهد فى مواسم العبادة. فيقضون زمنا فى العراء لا يحول بينهم وبين السماء حائل من سقف أو ستار. ويحرمون على أنفسهم فى الأشهر الحرام أكل الأقط والسمن ولبس النسيج من الوبر والشعر. ولا يجيزون لغيرهم أن يطوف بالبيت فى غير الثياب الأحمسية ويجعلون المطاف بالليل للنساء إذا لم تكن عليهم هذه الثياب.

ومن رعاية جوار البيت حلف الفضول الذى تعاهد عليه أناس من علية قريش لينصرن كل مظلوم ويردن الحق إلى كل مغصوب وليكونن يدا واحدا فى قتال كل غاصب يلج فى ظلمه وغصبه اعتزازا بماله أو بعصبته

وحزبه. وما من مقدمة للدعوة المحمدية كانت الزم ولا أكرم من هذه المقدمة تيسيرا لاجتماع الكلمة على الخير وتوحيد أبناء الجزيرة العربية فى دعوة واحدة ليست لذى سلطان من ملوك اليمن أو خليج فارس أو مشارف الشام الذين يدينون بالولاء للأكاسرة والقياصرة وللنجاشيين. بل هى دعوة الله يتلقاها أصحاب التيجان والعروش كما يتلقاها عامة الخلق من عباد الله.

أسرة النبيّ

أجداد النبى

منذ ثبتت للبيت الحرام تلك المكانة العالية بين العرب كافة وجبت له أمانة الخدمة بماله من حق محفوظ وشرف ملحوظ ، ووجب لخدامه السمت الذى يجمل بهذا المقام وهو فوق مقام الرئاسة الدنيوية وعلى مثابة من مُقام العبادة والتقديس .

ولم يقم بهذه الأمانة أحدكما قام بها أجداد النبى عليه السلام من بنى هاشم ، فقد حفظوا حقها وعرفوا سمتها بل طبعوا عليه فطرة بغير كلفة . وبدا منهم الإيمان بها فى مآزق الشدة التى يمتحن فيها الإيمان بحب النفس وحب البنين فيغلب الإيمان على حب المرء لنفسه وحبه لبنيه

وقد تنافس بنو هاشم وبنو أمية على هذا الشرف فأسفرت المنافسة بينهما عن فارق فى الطباع ملحوظ الأثر فى خلائق الأسرتين من أيام الجاهلية إلى ما بعد الإسلام بعدة قرون . ومهما تجد من ندين متناظرين فى هاشم وامية إلا وجدت بينهما هذا الفارق على نحو من الأنحاء .

كان بنو هاشم أصحاب عقيدة وأريحية وسماحة ، وكان بنو أمية أصحاب عمل وحيلة ومظهر مشنوء . وينعقد الإجماع أو ما يشبه الإجماع على أخبار الجاهلية التى تنم على هذه الخصال فى الأسرتين وبقى الكثير منها إلى ما بعد قيام الدولة الأموية فلم يفندوه .

ومن هذه الأخبار أخبار المنافرات المتتالية تجمعها منافرة حرب وعبد المطلب إلى نفيل جد عمر بن الخطاب إذ يقضى لعبد المطلب ويخاطب حربا قائلا : «أتنافر رجلا هو أطول منك قامة وأعظم منك هامة وأوسم منك وسامة وأقل منك لامة وأكثر منك ولدا وأجزل منك صفدا وأطول منك مذودا .

أبوك معاهر وأبوه عف وذاد الفيل عن بلد حرام»

والنسابون يؤيدون ما تواترت به هذه المنافرات ، فيقول دغفل النسابة لمعاوية وقد سأله عن جده أمية : «رأيته رجلا قصيرا ضريرا يقوده عبده ذكوان» ... قال معاوية «ذلك ابنه أبو عمرو !» قال دغفل : «ذلك شىء تقولونه أنتم أما قريش فلم تكن تعرف إلا إنه عبده» .

ويقول الكلبى فى أبناء عبد المطلب : «كانوا إذا طافوا بالبيت يأخذون البصر» .

قلنا فى كتابنا عن ذى النورين عثمان بن عفان : «وقد يتردد المؤرخ فى قبول بعض الروايات المتقدمة على علاتها ، ولكنه لا يحتاج إلى المشكوك فيه من تلك الروايات ليعلم هذا الفارق الواضح من خلائق العشيرتين فيما أثر عنهم قبل الإسلام وبعد الإسلام ، ففى حلف الفضول قام بنو هاشم بالأمر وقام به معهم بنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم ، وتخلى عنه بنو عبد شمس فلم يشتركوا فيه ... وخلاصة قصته أن رجلا يمانيا قدم مكة ببضاعة فاشتراها رجل فلواه حقه وأبى أن يرد عليه بضاعته ، فقام فى الحجر أو فى مكان على شرف وصاح يستغيث ، وكان من أجل ذلك أن تعاهد أناس من بنى هاشم وأحلافهم ألا يظلم بمكة غريب ولا

قريب ولا حر ولا عبد إلا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه من أنفسهم ومن غيرهم. وعمدوا إلى ماء من زمزم فجعلوه فى جفنة وبعثوا به إلى البيت فغسلت به أركانه وشربوه. وقد أبى الأمويون وبنو عبد شمس عامة على أحد منهم أن يدخل هذا الحلف فكان أحدهم عتبة بن ربيعة يقول: «لو أن رجلا وحده خرج من قومه لخرجت من عبد شمس حتى أدخل حلف الفضول».

وربما خفى السبب الذى يرجع إليه هذا الفارق بين الأسرتين. فقد يرى بعضهم أنه يرجع إلى النسب المدخول وقد رمى الأمويون الأوائل بشبهات كثيرة فى عمود النسب وعرض لهم بذلك أناس من ذوى قرباهم فى صدر الإسلام وأشهر ما اشتهر من هذه الشبهات قصة ذكوان الذى يقولون إنه من آبائهم ويقول النسابون إنه عبد مستلحق على غير سنة العرب فى الجاهلية. ومما يعلل به هذا الفارق أن بنى أمية كانوا يغيبون عن ديارهم ويعودون إليها فلا يطيب للمقيمين فيها أن يعترفوا لهم بدعوى الزعامة عليهم، وأنهم أكثروا من الرحلة فى بادئ الأمر لحاجتهم وقلة محصولهم من نتاج النعم وأرباح التجارة. وليس بالبعيد أن «المنافرة» التى أشار إليها المحكمون بينهم وبين الهاشميين قد أورثتهم بعض أمراضها ودست فى أخلاقهم شيئا من خبائثها. وليس بالبعيد أيضا أن الفارق بين الأسرتين إنما كان من قبيل تلك الفوارق التى نراها بين الإخوة كأنها قسمت بينهم ميراث الأخلاق فذهب أحدهم بالحول وذهب أخوه بالحيلة، أو ذهب أحدهم بالكرم والأريحية وذهب أخوه بنقائضها من خلال الأثرة والدعوى.

وأياما كان سر هذا الفارق البين لقد كان بنو هاشم – أسرة النبى – أصحاب رئاسة، وكانت لهم أخلاق رئاسة.

عرفوا بالنبل والكرم والرحمة والوفاء والعفة. وبرزت كل خليقة من هذه الخلائق فى حادثة مأثورة مذكورة. فلم تكن خلائقهم هذه من مناقب الأماديح التى يتبرع بها الشعراء، أو من الكلمات التى ترسل إرسالا على الألسنة ولا يراد بها معناها.

كان هاشم غياث قومه فى عام المجاعة، فبذل طعامه لكل نازل بمكة أو وارد عليها. وسمى بهاشم من ذلك اليوم لهشمه الثريد ودعوة الجياع إلى قصاعه:

عمرو الذى هشم الثريد لقومه ... ورجال مكة مسنتون عجاف

ومما يروى عنه أنه كان أول من سن الرحلتين لقريش: رحلة الصيف ورحلة الشتاء. وحقيقة ذلك فيما يخلص لنا من سوابق الرحلات أنه كان يحمى تلك الرحلات وينظمها. فنسب إليه أنه أول من سنها.

ومكانته فى غير قريش. وفى مدن التجارة خاصة. تدل عليها مصاهرته لبنى النجار فى المدينة. وزواجه من سلمى بنت عمرو التى كانت – لشرفها وعزتها – تأبى أن تتزوج إلا أن يكون أمرها بيدها، ولو لم يكن لهاشم مقامه فى الحجاز كله لما أصهر إلى القوم ولا ارتضى القوم هذه المصاهرة من رجل يزور مدينتهم زيارة الطريق بين مكة والشام. وقد كان المعهود فى بنى عبد مناف أنهم لا يقعدون جميعا فى ديارهم وأنهم لا تزال لهم همة طامحة فى رحلاتهم وأسفارهم، ومات أكثرهم فى غير وطنهم. فمات هاشم بغزة فى الشام ومات عبد المطلب بردمان إلى ناحية من أرض اليمن. ومات نوفل بسلمان فى العراق.

وابن هاشم عبد المطلب سيد قريش غير مدافع . ويبلغ هذا التقابل بين الأسرتين أقصاه فى عهد مناظره حرب بن أمية . فكان كلاهما نمطا فى بابه من طرفى العقيدة والأريحية وطرف السعى والحيلة .

وكان عبد المطلب متدينا صادق اليقين . مؤمنا بمحارم دينه فى الجاهلية لأن ثقة الإيمان طبيعة فى وجدانه . وهو أول من حلى الكعبة بالذهب من ماله . ويعنينا منه أنه كان فى الحق نمطا فريدا بين أصحاب الطبائع التى فطرت على الاعتقاد ومناقب النبل والإيثار .

فلم تكن مناقبه من مناقب الطابع والوتيرة التى تتكرر على صورة واحدة بين المتصفين بها . ولم يكن كرمه ولا حزمه ولا شجاعته من قبيل الصفات التى تعرف بهذه الأسماء فى جميع الكرماء وذوى الحزم والشجاعة .

بل كانت مناقبه مطلبية تدل عليه ولا تصدر من غيره . وكانت كلها مزيجا من الأنفة والرصانة والاستقلال ومواجهة الغيب على ثقة وصبر وأناة .

وهذه طائفة من أخباره لا نفتقد فى واحدة منها تلك المناقب المطلبية التى تعز على خيال المتخيل مالم يكن وراءها أصل تحكيه وترجع إليه .

وصل أبرهة الحبشى عام الفيل إلى أرباض مكة وبعث رجلا من العرب يسمى حناطة يسأل عن «أمير مكة» ويبلغه أن أبرهة لم يأت لقتالهم وإنما أتى لهدم البيت الحرام فإن لم يمنعوه فهم فى أمان من حربه .
فلما لقى الرسول عبد المطلب وأبلغه رسالة أبرهة قال عبد المطلب : والله ما نريد حربه . وهذا بيت الله وبيت خليله ابراهيم فإن يشأ منع بيته وحرمه وإن لم يشأ نخلى عنه . ووالله ما عندنا من قتال .

قال الرسول : انطلق معى إلى الملك . فانطلق معه عبد المطلب إلى أن أتى معسكر أبرهة وأدخلوه عليه .

يقول الرواة : وكان عبد المطلب رجلا عظيما مهيبا وسيما فنزل أبرهة عن سريره وأجلسه معه وسأله عن طلبته فقال عبد المطلب : الإبل التى ساقها جندك !

ويقول الرواة : فهان أمر عبد المطلب فى نظر أبرهة وقال له : أتسأل عن البعير وتترك البيت الذى هو دين آبائك ودينك من بعدهم ؟ فقال عبد المطلب : أنا رب الإبل . وللبيت رب يحميه . فأمر برد إبل عبد المطلب دون غيرها . فأخذها عبد المطلب وقلدها النعال وساقها هديا إلى الحرم . ووقف على باب الكعبة يقول :

يارب لا أرجو لهم سواكا ... يارب فامنع منهم حماكا
إن عدو البيت من عاداكا ... فامنعهم أن يخربوا قراكا

هذه هى «المطلبية» التى نعنيها فى خصال هذا الرجل العظيم : لاتهور مع القوة الطاغية . ولكن لاخضوع لها بل وضع لها فى موضعها . وقول يناسب كل مقام . فإذا خامر الظن أحدا لايفهم معنى هذه الأنفة التى تأنف من التهور كما تأنف من الجبن فهناك الجواب الفعل الذى يغنى ماليس يغنيه المقال : ماسألت عن الإبل لأننى أضن بأثمانها فإننى قد وهبتها بعد ذلك للبيت . ولكننى سألت عنها لأنها هى موضع سؤالى : وتركت السؤال عن البيت لأن استجداء الرحمة من أبرهة لبيت الله ينفى الثقة بالبيت وبالله . . .

وقد حدث بعد ذلك ماحدث مما لاشك فيه ، وهو فتك الجدرى

بجنود أبرهة وانهزامه عن البيت وخوفه من أن يتقدم إليه بأذى . وإنه لخبر قد يسهل إنكاره على المتحذلقة من أدعياء التاريخ الذين يجمعون التمحيص كله فى الإنكار ، لولا أن حديث الجدرى الذى فشا (فى سنة ٥٦٩) مثبت كما تقدم فى تاريخ بروكوب Procope الوزير البيزنطى المعروف .

وخبر آخر من أخبار هذه المناقب المطلبية أنه عاش زمنا قليل الولد لم يرزق غير ابنه الحارث الذى كان يكنى به . وعيره عدى بن نوفل بن مناف يوما فقال له : أتستطيل علينا عبد المطلب وأنت فذ لا ولد لك ؟ فأجابه عبد المطلب جوابه الذى أثر عن ذلك اليوم : أبا لقلة تعيرنى ؟ ! فوالله لئن آتانى الله عشرة من الولد لأنحرن أحدهم عند الكعبة . !

وسنعود إلى التعقيب على هذه القصة فى حديث عبد الله أبى النبى عليه السلام . ولكننا نجتزئ هنا بأن نقول إننا لانسقطها لمجرد اختلاف الروايات فيها ، فإن أخبار الحاضر تتناقض أمامنا ونحن لاننكر وقوعها لهذا التناقض . وقد اختلفت الرواة فى عبد الله بن عبد المطلب هل هو أصغر أبنائه جميعا أو أصغر أبنائه من أمه ، وهل بلغ أبناؤه العشرة أو حسب منهم أبناء الأبناء . وكل أولئك لايسقط القصة كما أسلفناه وكما يجىء فى سيرة عبد الله .

وملتقى الروايات فى هذه القصة أنه أمر بنيه أن يكتب كل منهم اسمه فى قدح وطلب من صاحب القداح أن يضرب عليها فخرج السهم باسم عبد الله . فهم بإنفاذ نذره لو لم يتشفع عنده ابنه العباس ورجالات قريش ، وتنادوا بينهم : لئن فعل ذلك لتكونن سنة ولايزال الرجل يأتى بابنه فيذبحه . فإن يكن فداء فبأموالنا جميعا نفديه .

واحتكم إلى عرافة بالحجاز فسألتهم : كم الدية فيكم ؟ قالوا : عشرة من الإبل . قالت : قربوا عن ولدكم عشرة من الإبل ثم اضربوا عليها وعلى ولدكم ، ثم زيدوا الإبل كلما أخطأها السهم حتى يخرج السهم عليها فانحروها عنه . فقد رضى ربكم ونجا ولدكم .

ففعلوا وعادوا إلى مكة فقربوا عشرة من الإبل وضربوا القداح فخرج القدح على عبد الله . وجعلوا يزيدون عشرة فعشرة حتى بلغت مائة وقيل ثلثمائة . فخرج السهم عليها فنحروها وتركوها لا يمنع من طعمها إنسى ولا وحشى ولا طير .

ومن أخباره أن قريشا خاصمته فى ماء زمزم بعد أن حفرها وعارضوه فى احتفارها ، فاحتكموا إلى كاهنة بنى سعد بن تميم بمشارف الشام . وركب عبد المطلب ومعه نفر من بنى عبد مناف وركب من كل قبيلة من قريش نفر يتقدمون . وفنى ماء عبد المطلب عند بعض المفاوز بين الحجاز والشام فظمئ أصحابه حتى أيقنوا بالهلكة ، وطلبوا الماء ممن معهم من قريش فلم يسقوهم . فجمع أصحابه وسألهم : ماترون ؟ قالوا : إنما نحن تبع لرأيك فمرنا بما شئت . قال : فإنى أرى أن يحفر كل منا حفرته لنفسه يواريه فيها أصحابه إذا مات . حتى يكون آخركم موتا قد وارى الجميع . فضيعة رجل واحد خير من ضيعة الركب كله . . . ثم بدا له رأى أصوب من هذا الرأى فقال لأصحابه : والله إن إلقاءنا أنفسنا بأيدينا نموت هكذا دون أن نضرب فى الأرض ونبتغى لأنفسنا لهو العجز . فهلموا نرتحل . ولم يذهبوا فى طريقهم غير يسير حتى انفجرت عين ماء عذب تحت خف راحلته . فشربوا وملأوا أسقيتهم . ثم دعا القبائل من قريش فقال : هلموا إلى الماء فقد سقانا الله . فقال

أصحابه : لانسقيهم والله لأنهم لم يسقونا . قال : نحن إذن مثلهم ، ولم يرضه أن يعمل مثل عملهم وهو أحق بالرجحان عليهم ، وعرف القرشيون له هذا الحق فكفوا عن منازعته في ماء زمزم وسلموا له السقاية التي كانوا ينفسونها عليه .

ويروى عنه أنه كان له جار يهودى يسمى أذينة ، وكان له مال كثير فطمع فيه حرب بن أمية وأغرى به فتيانا من قومه فقتلوه ، فلم يزل عبد المطلب يستقصى خبره حتى علم باغتياله ومن اغتالوه ، فأبى إلا أن يكره حربا على الدية وأخذ منه مائة ناقة أسلمها إلى ابن عم اليهودى وارتجع ماله إلا شيئا هلك فارتجعه من ماله .

وهذه هى المناقب « المخصصة » التى نقول إنها لاتجرى مجرى الطابع والوتيرة ولا تغنى عناوينها عن النظر فى ملامح أصحابها ومميزاتهم فى التفكير والعمل ، وهى مناقب لاتخترع ولايضيرها أن يضاف فيها الخبر المخترع إلى الخبر الواقع . لأن الرواة المخترعين فى هذه الحالة إنما ينقلون عن صورة أصيلة تمت فى أذهانهم قبل اختراع أخبارهم عنها ، فحاولوا أن تكون أخبارهم المخترعة مطابقة لحقيقتها .

ففى كل خبر من هذه الأخبار « المطلبية » إيمان وحزم ووفاء وجرأة على الخطر ولكن فى غير مغالطة ولا اصطناع . وإنما قوام ذلك كله حزم يملك زمامه ويفعل واجبه كما يراه .

وأدعياء التاريخ خلقاء أن يسألوا أنفسهم هنا سؤالين لايغفلها أحد يفقه معنى تمحيص الخبر . وأولها فى هذا السياق : لماذا يخترع الرواة هذه الأخبار عن عبد المطلب دون غيره ؟ وثانيهما : لماذا لم يخترعوها ولا اخترعوا أمثالها عن حرب بن أمية ؟

فإذا كانت صورة الرجل فى الأذهان هى علة الاختراع فهناك حقيقة إذن ماثلة وراء هذه المخترعات ، وهناك دلالة فى اتفاق الأذهان على الاختراع أولى بالتصديق من اتفاقهم على رؤية العيان ، لأن رؤية العيان تحتاج بعدها إلى البحث عما تدل .

وقد اتفقت الروايات كلها على صفات عبد المطلب قبل الاتفاق على أخباره . واتفقت الصفات والأخبار معا على ملامح شخصية قوامها الإيمان والحزم والوفاء وضبط النفس فى مواجهة القوة والخطر بعزيمة لاتهور فى غير جدوى ولاتنكص على عقبيها خوفا من فوات الجدوى .

وكلها صفات جديرة بآباء الانبياء والمرسلين .

عبد المطلب

ولد عبد المطلب فى المدينة وسمى « شيبة » تفاؤلا له بطول العمر فى أسرة لم يكن طول الأعمار من خصائصها ، وترى بعيدا من آل أبيه فصدق عليه فى طفولته قول القائلين فى عصرنا إن الطفل أبو الرجل . لأنه كان يلاعب الصبيان من لداته فيذكرون آباءهم ويفخرون بهم عليه وهو لايرى أباه بينهم . وحز ذلك فى نفسه فجعلت أمه تسرى عنه وتحدثه عن آل أبيه ومآثرهم فى جوار البيت الحرام ، فطال اشتياقه إلى رؤيتهم والإقامة بينهم ، بيد أنه أحجم عن السفر مع عمه « المطلب » حين قدم إلى المدينة لأخذه إلى مكة ، وبصر بأمه فى الدار حزينة واجمة تبكى لفراقه وتستمهل عمه عسى أن يبقيه لديها إلى عام قابل ، فقهر فى تلك السن الباكرة شوقه إلى أهل أبيه وقد عز عليه فى المدينة أن يفاخر

بهم لذاته بين آبائهم وذويهم . وظهر فى إبان الطفولة ذلك التطلع إلى المجهول وذلك الحنين إلى الغرائب وتلك الرغبة فى كل حركة وكل انتقال من مكانه الذى هو فيه . وقال لعمه بعد أن تهلل لمرآه ورحب بالعودة معه إلى قومه : لن أترك أمى أو تأذن لى بالسفر معك راضية .

وفى سفرته تلك سمى عند مدخل مكة بعبد المطلب لأن أهلها رأوه مع المطلب لأول مرة فحسبوه عبداً اشتراه . وجعلو يدعونه باسم « عبد المطلب » كلما أرادوا أن يميزوه من أبنائه . فغلبت عليه .

وشب الغلام عزوفا أبيا لايستكين للهضيمة ولاينزل عن حق له أو حق كان لأبيه . فلما أراد عمه نوفل أن يستأثر بمنزلة أبيه هاشم وميراثه لديه تحين الفرصة للسفر إلى المدينة وعاد إلى مكة بعصبة من أقارب أمه وأخواله ، وهم أولو عصبة أشداء . يشاد بغوثهم فى مدائح الشعراء :

ولو بأبى وهب أنخت مطيتى
غدت من نداه رحلها غير خائب

فتلقاهم عمه نوفل مرحبا ودعاهم إلى ضيافته فلم يقبلوها أو يرضى فتاهم ، فصالحهم على مايرضيهم ويرضيه .

وصح التفاؤل فى عبد المطلب فعاش حتى ناهز المائة أو جاوزها ومات والنبى عليه السلام دون العاشرة فعهد به إلى كفالة عمه أبى طالب شقيق أبيه .

وكل ماتفرقت فيه الروايات من أمره قد استقرت على صفة لاتتفرق فيها رواياتها ، وهى صدق التدين والإيمان بمحارم الدين فى سدانته أو فى

غير سدانته ، واسم ولد من أولاده عبد العزى الذى اشتهر بعد ذلك باسم أبى لهب لزهرة كانت فى لون وجهه ، ومن حديثه أنه كان يتعصب للعزى التى نمى إليها باسمه ، وأنه زار أحد عبادها المتنسكين لها فى مرض موته فوجده يبكى ، فسأله : مايبكيك ؟ أمن الموت تبكى ولامفر منه ؟ قال الرجل : كلا . ولكنى أخاف ألا تعبد العزى بعدى !

فقال أبو لهب : والله ماعبدت وأنت حى لأجلك ولاتترك بعدك لموتك . فاطمأن الرجل ومات وهو يقول : الآن علمت أن لى خليفة يرعاها .

وكانت العزى بوادى حراض على يمين المصعد إلى العراق . وكانت قريش قد حمت لها شعبا يقال له سقام يضاهون به الكعبة .. وهى التى يعنيها أبو جندب الهذلى إذ يقول فى بعض غزله :

لقد حلفت جهدا يمينا غليظة
بفرع التى تحمى فروع سقام

ولها منحر تذبح فيه الذبائح ويقصد إليه الحاج بعد منى كما يقول نهيكة الفزارى يخاطب عامر بن الطفيل :

ياعام لو قدرت عليك رماحنا
والراقصات إلى منى فالغبغب

وشأن هذه القصة فى مناقب عبد المطلب أن التدين لم يكن وسيلة من وسائل الرجل إلى طلب السيادة والسدانة ، وأنه لم يتدين لأنه سادن الكعبة وصاحب المنفعة فى تعظيمها . بل كان يعظم العزى ولا منفعة

له فى هذا التعظيم . وكان الدين عنده إيمانا خالصا من الحيلة ومن مآرب الكهانة .

ولا يخفى أن الوراثة فى الطبائع لافى الشعائر وظواهر العبادة ، فمن كانت عنده عقيدة الإيمان بالغيب والعلو بما يؤمن به عن عوارض الأهواء واللذات ، وهان عليه نسيان المنافع والشهوات فى سبيل رضاه ، وطابت نفسه بالفداء وفرائض الطاعة والوفاء فهذه هى الطبيعة التى تورث على اختلاف الشعائر والعبادات . ومثلها فى ذلك مثل الشجاعة فى القتال ومثل السخاء بالمال ، فإن الابن الذى يرث الشجاعة من أبيه لايرث منه ميدانه ولاتتوقف شجاعته الموروثة على سلاحه . فقد يحارب الابن بسلاح لم يعرفه أبوه ، وفى ميدان غير ميدانه ، وقد يبذل المال لإقامة مسجد ولم يبذل أبوه المال إلا لنحت صنم أو ذبح قربان على وثن ، ولاغضاضة على ماورثه من شجاعة ولاماورث من سخاء .

وهذه الطبيعة هى التى ينظر إليها الناظر فى مناقب الأسرة الموروثة ، فلوكان عبد المطلب ينافق بالتدين ليخدع به قومه ويتذرع به إلى الرئاسة عليهم لما كان هو عبدالمطلب الذى تورث منه خصال الصدق والإيمان ، ولكنه تورث منه هذه الخصال حين يصدق فى معتقده بالكعبة وبالعزى ، وحين يدين الناس بما يدين به نفسه فى رئاسة هؤلاء الناس .

أبو طالب

وكان أبو طالب – خليفته فى الوصاية على النبى – أشبه أبنائه به فى جميع خصاله ومناقبه .

واختلاف كثير فى اسلام أبى طالب ، إذ لم يتفق الرواة على إسلام أحد من أعمام النبى غير حمزة والعباس وهما فى مثل سنه . والعباس يكبرهما بنحو ثلاث سنوات .

ولكن لاخلاف على حمايته له وحبه إياه وصبره على عداوة قريش كلها فى سبيل نصرته ورد أذاهم عنه . وقد لقى فى ذلك مايطيق ومالايطيق . وعظم عليه الخطب وأشفق من مغبته عليه وعلى ابن أخيه فقال له فى ساعة من أشد ساعات الحرج : « أبق على نفسك يابنى ولاتحملنى من الألم مالا أطيق » . . . فحزن النبى وحسب أنه سيخذله وقال له وهو يهم بمفارقته : « والله ياعم ! لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ماتركته » .

فلم يبرح النبى غير قليل حتى ناداه عمه وقال له وهو حزين لحزنه : « اذهب ياابن أخى فقل ماأحببت ، فوالله لاأسلمك لشىء أبدا » .

وفى رواية ابن إسحاق : « أن رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة وخرج معه على بن أبى طالب مستخفيا من أبيه أبى طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه ، فيصليان الصلوات فيها فإذا أمسيا رجعا . فمكثا كذلك ماشاء الله أن يمكثا . ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوما وهما يصليان . فقال لرسول الله ﷺ : ياابن أخى ! ماهذا الدين الذى أراك تدين به ؟ قال : أى عم . هذا دين الله ودين رسله ودين أبينا إبراهيم . . . بعثنى الله به رسولا إلى العباد وأنت أى عم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى وأحق من أجابنى إليه وأعاننى

عليه » . . . فقال أبو طالب : « أى ابن اخى ! إنى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه ، ولكن – والله – لايخلص إليك بشىء تكرهه مابقيت » .

وقال ابن إسحاق : « وذكروا أنه قال لعلى : أى بنى ! ماهذا الدين الذى أنت عليه ! فقال : ياأبت آمنت بالله وبرسول الله ، وصدقت بما جاء به ، وصليت معه لله واتبعته ، فزعموا أنه قال له : إما أنه لم يدعك إلى خير ، فالزمه »

وبر أبو طالب بقسمه وحمل السيف فى سبيل نجدته ، وروى القرطبى أنه ناجز أبا جهل وجلة قريش فى مجموعهم يوم اعتدى ابن الزبعرى عليه فى صلاته . وكان النبى عليه السلام قد دخل الكعبة ليصلى كعادته فقال أبو جهل : من يقوم إلى هذا الرجل فيفسد عليه صلاته ؛ فقام ابن الزبعرى فأخذ فرثا ودما فلطخ به وجه النبى ، وانفتل النبى من صلاته وقصد إلى عمه فسأله عمه : من فعل هذا بك ؟ قال : عبد الله بن الزبعرى ! فقام أبو طالب ووضع سيفه على عاتقه ومشى معه حتى أتى القوم ، فلما رأوه قد أقبل جعلوا ينهضون فقال أبو طالب : والله لئن قام رجل لجللته بسيفى ، فقعدوا حتى دنا منهم ، وأخذ أبو طالب فرثا ودما فلطخ به وجوههم ولحاهم وانصرف وهو يغلظ لهم القول !

وقد تكفل أبو طالب بالنبى فى طفولته الباكرة وصحبه فى غدواته وروحاته خوفا عليه من إساءة تمسه فى غيابه وانتوى السفر إلى الشام والنبى فى نحو الثانية عشرة من عمره فأشفق عليه أن يجشمه عناء السفر البعيد ، ثم تهيأ للرحيل فتعلق به الغلام الودود وبكى لفراقه ، فلم يقو

على مفارقته وهو باك ، وقال لصحبه : والله لأخرجن به معى ولايفارقنى ولا أفارقه أبدا .

ولقد كان الرجل الجليل يذكر أخاه كلما لمحت عيناه الغلام اليتيم فتشرق عيناه بالدموع ، ويقول : ماأشبهه بعبد الله ! وقد كان أبو طالب وعبد الله – كما تقدم – أخوين شقيقين . ولم يثبت قط أن هذا العم الكريم تخلى طرفة عين عن ابن أخيه أو أحزنه بكلمة لاترضيه من طفولته إلى أن جهر بدعوته ، ولم يخالف هذا الإجماع من أخبار أبى طالب والنبى أحد من المؤرخين حتى أولئك المفسرين الذين حسبوا أن أبا طالب هو المقصود بما جاء فى القرآن فى سورة الأنعام : « وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين وهم ينهون عنه وينأون عنه . وإن يهلكون إلا أنفسهم ومايشعرون »

فقد وهم أولئك المفسرون أن أبا طالب كان هو المقصود بهذه الآيات لأنه كان ينهى عن أذى النبى ولايدين بدينه . ولم يكن أبو طالب ممن يلقون النبى ليجادلوه فيصدق عليه ذلك التفسير . وأوضح من خطأ هؤلاء المفسرين هنا ظنهم أن أبا طالب مقصود بعد وفاته بقوله تعالى فى سورة القصص : « إنك لاتهدى من أحببت » . . . فإن سورة الأنعام قد نزلت بعد سورة القصص كما جاء فى كتاب الإتقان . فلا هداية ولاجدال ولانهى عن أذى النبى بعد الوفاة .

وعلى الجملة تبدو لنا رعاية أبى طالب لابن أخيه على الرغم من قريش خلائق رحمة ونخوة ووفاء واعتداد بالجاه والكرامة . وتبدو لنا

من سيرته كلها خلائق أخرى من قبيل هذه الخلائق التي تجمع بين الطيبة والقوة . فإننا نعلم أنه كان يلقب بسيد الأباطح ، وأنه كان يخرج للتجارة آنة بعد أخرى ، وأن اباه عبد المطلب كان على ثراء عظيم وكان سادات بني أمية ينافسونه بالغنى والسخاء فلا يدركونه فى هذا ولاذاك ، ثم نعلم على كل هذا أن أبا طالب قد لقى ضنكا فى شيخوخته وأن النبى قد أعانه بكفالة ابنه على وتربيته فى داره ، ونعلم كذلك أن النبى لم يكن على حال من الوفر قبل اشتغاله بتجارة السيدة خديجة ومشاركته فى ربح أموالها . فمصير ابن عبد المطلب وحفيده إلى حال من القلة بعد غنى الجدود والأوائل قد ينبئ عن نصيب الأسرة النبوية من السدانة ومن مناصب الدين فى البيت المعمور ، فأكبر الظن أنها كانت مغرما يأخذ من أموالهم ولم تكن مغنما يربحون منه الكثير أو القليل ، ولولا سعة التجارة التى عمل فيها هاشم والمطلب حتى قيل إن أحدهما سن لقريش سنة الرحلتين إلى الشام واليمن – لما وصل إليهما ذلك الثراء المشهور ولا استطاعا النهوض بأعباء الشرف ومناصب الدين .

ولقد مر بنا من نجدة أبى طالب لابن أخيه ماتم به فضيلة النجدة كاملة لهذا الشيخ الكريم ، ولكنها كانت فى الحق نجدة تتسع لكل قاصد ومستجير ولو لم تكن حقوق ابن الأخ على عمه ؛ فقد استجار به أبو سلمة صاحب بنى مخزوم فأجاره وأعلن على الملأ جواره ، فمشى إليه رجال من بنى مخزوم فقالوا : ياأبا طالب ماهذا ؟ منعت منا ابن أخيك محمدا فالك ولصاحبنا تمنعه منا ؟ قال : إنه استجار بى وهو ابن أختى ، وإن أنا لم أمنع ابن أختى لم امنع ابن أخى . فغضب أبو لهب فى هذه المرة لأخيه الشيخ وثار بهم قائلا : يامعشر قريش ! والله لقد أكثرتم على

هذا الشيخ . ماتزالون تتواثبون عليه فى جواره من بين قومه . والله لتنتهن عنه أو لنقومن معه فى كل ماقام فيه حتى يبلغ ماأراد . فخشى زعماء قريش مغبة الوفاق بين الأخوين فى النجدة والجوار ، وكان أبو لهب معهم على رسول الله فى دعوته ، فقالوا : بل ننصرف عما تكره ياأبا عتبة . انصرفوا راغمين .

وحكى عن هشام بن السائب الكلبى عن أبيه فى رواية لانثبتها ولاننفيها أن أبا طالب لما أحس الموت ، جمع إليه وجوه قريش فأوصاهم فقال : يامعشر قريش ! . . إنى أوصيكم بمحمد خيرا فإنه الأمين فى قريش والصديق فى العرب وهو الجامع لكل ما أوصيكم به . وقد جاء بأمر قبله الجنان وأنكره اللسان مخافة الشنآن ، وأيم الله كأنى أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الوبر والأطراف المستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته وعظموا أمره فخاض بهم غمرات الموت فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابا ودورها خرابا وضعفاؤها أربابا وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه وأبعدهم منه أحظاهم عنده . قد محضته العرب ودها وأصفت له فؤادها وأعطته قيادها . يامعشر قريش ! كونوا له ولاة ولحزبه حماة ، والله لايسلك أحد سبيله إلا رشد . ولايأخذ بهديه إلا سعد ، ولوكان لنفسى مدة ولأجلى تأخير لكففت عنه الهزاهز ولدفعت عنه الدواهى . . . .

وهذه الوصية لايثبتها القارئ لما على هذا الإسلوب إلا أن تكون لسان حال لا لسان مقال . وإلا أن يكون ماقيل بعض لفظها وبعض معناها . ولم يكن كل ماجاء فيها .

العباس وحمزة

وعمان آخران غير أبي طالب كانت لهما شهرة وصلة بالدعوة النبوية عرفنا منها بعض ما اتصفا به من صفات وكفايات . وهما العباس وحمزة . وكلاهما اخ لعبد الله غير شقيق .

فالعباس على صغره تولى السقاية بعد أبيه ، وامتاز بين سادات قريش بالرأى والدهاء وطول الأناة . وكان له علم بالأنساب وقدرة على تألف الناس ودفع العداوات . مع هيبة يحسب لها حسابها جلة قريش من هاشميين وأمويين ، وهو جد بنى العباس ومن خلائقه خلائق أبنائه الكفاة الدهاة من كل رئيس مطاع فى هذا البيت الفريد بين بيوتات الهاشميين .

وحمزة فارس فى خلائق الفروسية كلها من شجاعة وصدق وإيمان ودراية بالسيف والخيل . قال ابن إسحاق فى قصة إسلامه : « فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه أن أقبل متوشحا قوسه راجعا من قنص يرميه ويخرج له ، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم ، وكان أعز فتى فى قريش وأشد شكيمة ، فلما مر بالمولاة – مولاة عبد الله بن جدعان – قالت له : ياأبا عمارة . لو رأيت مالقى ابن أخيك محمد آنفا من أبى الحكم بن هشام ! . وجده هاهنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه مايكره ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد ﷺ . فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته ، فخرج يسعى ولم يقف على أحد ، معدا لأبى جهل إذا لقيه أن يوقع به . فلما دخل

المسجد نظر إليه جالسا فى القوم فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة ، ثم قال : أتشتمه ؟ فأنا على دينه أقول مايقول ، فرد ذلك على إن استطعت . فقامت رجال من بنى مخزوم لينصروا أبا جهل فقال أبو جهل : دعوا أبا عمارة . فإنى والله قد سببت محمدا ابن أخيه سبا قبيحا . . . »

قال القوم : مانراك ياحمزة إلا قد صبأت .

فقال حمزة : وما يمنعنى وقد استبان لى منه ذلك . . أنا أشهد أنه رسول الله .

ومن أعمام رسول الله غير حمزة والعباس رجلان لم يسلما وهما الزبير وعبد العزى أبو لهب ، وكلاهما كان يحنو بالطفل الصغير ويدلله ويواليه بالسؤال عنه ، وكان الزبير يرقصه بأبيات الشعر يرجو له طول العمر والنجابة ، ووهب له أبو لهب جاريته ثويبة ترضعه وتخدمه فى طفولته ، ولانعرف من أخبار الزبير ماينبئ عن صفاته وكفاياته ، وأما أبو لهب فالمعروف عنه – ولاسيما فى علاقاته بابن أخيه بعد الدعوة – غير قليل .

كان بنو هاشم وبنو المطلب جميعا فى نصرة النبى من آمن منهم به ومن لم يؤمن ماعدا أبا لهب وبنيه . وفيه نزلت الآيات : « تبت يدا أبى لهب وتب ، ماأغنى عنه ماله وماكسب . سيصلى نارا ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد »

وتعليل هذا الشذوذ أنه من لوازم الأسر الكبيرة التى لاتشذ منها أسرة ذات خطر فى التاريخ ، فهو هنا القياس المطرد مع طبائع الأمور ، كان

من علله أنه يدعى بعبد العزى يتعصب لها ويغضب أن يحسب أحد أمامه أن عبادتها مرهونة بحياته كما تقدم .

وكان من علله أنفة الكبير أن ينقاد للصغير ، ولاننس أنها أنفة لاتستغرب في عشائر البادية وعشائر الرئاسة منها على التخصيص ، ومن استغربها فليذكر أن العباس وحمزة – عمى الرسول اللذين أسلما – كانا من لداته عليه السلام إلا سنوات ثلاثا أو أربعا تقدم بها العباس فكان لها أثرها في تأخير إسلامه سنوات

وكان من علل ذلك الشذوذ أنه كان على حلف ومشاركة لبيوتات قريش كلها لكثرة ماله وسعة تجارته وأعماله ، وقد قال للنبى في مجمع الأسرة : هؤلاء هم عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصباة ، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة ، وأنا أحق من اخذك ، فحسبك بنو أبيك وإن أقمت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش وتمدهم العرب . فما رأيت أحدا جاء على بنى أبيه بشر مما جئتهم به .

وفى مجلس آخر قال له أبو طالب : هؤلاء بنو أبيك مجتمعون ، وإنما أنا أحدهم ، غير أنى أسرعهم إلى ماتحب ، فامض لما أمرت . فوالله لاأزال أحوطك وأمنعك . غير أن نفسى لاتطاوعنى على فراق دين عبد المطلب .

قال أبو لهب : هذه والله السوأة . خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم . . . وانفض المجلس على غيظ يكظمه أبو لهب وعهد يبرمه أبو طالب ويقول فيه مقسما : والله لنمنعنه مابقينا .

وهذا هو الهوى الذى يزين لصاحبه أن يسوقه مساق الحكمة

والحيطة . فيزعم أنه يدفع الشر عن ابن أخيه وعن قومه ويجنبهم مالا يطيقونه من جهاد العرب . وإنه في طويته ليأنف أن ينقاد لمن هو أصغر منه . ويخشى مايصيبه من جراء انقياده لو سلست له كبرياؤه .

وليس من العلل التى تنسى في هذا المقام أنه كان زوجا لأخت أبى سفيان . وأن ولديه كانا متزوجين لرقية وأم كلثوم كريمتى رسول الله . وبين الزوجتين والزوجة إحن لاتهدأ ولاتزال تتحين الفرصة للوقيعة والتفرقة والعداء .

وأيا كان ماكان من أبى لهب فهو الشذوذ الذى يستغرب ألا يكون وليس بالغريب أن يكون !

وأشهر أبناء الأسرة من غير الأعمام ابن عمه الحبيب وابنه بالتربية على بن أبى طالب رضوان الله عليه . وصفاته وكفاياته تأخذ من كل سيد من ساداتها بنصيب : شجاعة وطيبة وفهم وإقبال على المعرفة وإيثار للمعروف .

أسرة لاتخرج النبوة وماخرجت قط من خير منها .

ونشأة النبى عليه السلام فيها أصدق المقدمات التى قلنا إنها مقدمات التمهيد والتحضير .

إلا أنها كسائر المقدمات التى مهدت من جانب لتقيم المصاعب كلها من جانب آخر .

أسرة عزيزة الآباء والأجداد . فخرها بالنسب أعظم من كل فخر . وسيادتها بالخلائق الموروثة أثبت من كل سيادة . ثم ينشأ لها من بينها نبى

ينعى على الآباء والأجداد ماكانوا عليه من ضلالة ، وينكر من الأبناء أن يسلكوا مسلكهم ويهيموا على آثارهم . ويقول لهم كما قال إبراهيم :

« لقد كنتم وآباؤكم فى ضلال مبين »

ويهيب بمن آمن منهم : « ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان »

ويدعوهم أن يتبعوا ماأنزل الله لأن آباءهم لايعقلون : « وإذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولايهتدون »

لقد نشأ محمد فى الأسرة التى تعطيه خير ماتعطى الأسر بنيها .

ولكنه جاءها بالنبوة التى لايعطيها غير الله !

وكانت الأسرة تمهيدا له فيما ورث منها .

ولكنها وما ورثت من قومها هى عقبة الأرض التى تمهدها السماء .

والدا النبى عبدالله وآمنة

تلك هى الأسرة العامة التى شملت الأجداد والأعمام . وللنبى صلوات الله عليه ، مع هذه الأسرة العامة ، أسرة خاصة من أبويه الشريفين عبد الله وآمنة .

ولم يعقب لنا التاريخ كثيرا من أنباء هذين الأبوين الشريفين ، ولكنه أعقب لنا مافيه الكفاية لبيان أثرهما النفسانى فى وجدان ولدهما العظيم .

ندرت فى أبوات العظماء أبوة كأبوة عبد الله بن عبد المطلب ، ونكاد نقول إنها مرت بغير نظير فيما وعيناه من تواريخ الأنبياء والهداة من كل قبيل .

فتى لم يكد ينجو من الموت ذبيحا حتى مات بعيدا عن زوجه التى فارقها عروسا وعن ولده الذى لم تره عيناه .

لكأنما وجد هذا الفتى فى الدنيا ليعقب ذرية تريدها العناية الإلهية ، ثم يتركها فى كلاءة تلك العناية بقدر لاتغنى فيه عناية الآباء .

وفى تاريخ الأنبياء أب عاش حتى شهد بعثة ابنه فأنكرها وتواطأ مع قومه على خذلانها . فبقيت ذكراه خيبة أمل وحيرة لمن بجل الدعوة وبجل إبراهيم .

فأما هذه الأبوة فالرحمة فيها تملأ مكان الخيبة ، والبر بالذكرى يملأ مكان الحيرة ويتطلع وراءه إلى الأسى على الفقيد والعزاء للوليد الوحيد .

وحياة لاتشبع سجل الحوادث والخطوب ، ولكن النفس تشبعها بما يعوضها عن حوادثها وخطوبها حبا سابغا وجمالا يفتن فيه الحس والخيال .

وهذا الذى صنعته بديهة الحياة الصادقة فلم تدع سيرة عبد الله حتى أودعتها من الخواطر والأمانى ماتزدحم به أعمار طوال ، فما تمناه له المحزونون على صباه وتقواه يفيض فى جوانب سيرته حتى تمتلىء به مائة حياة .

قيل فى بعض ماقيل من هذه الخواطر والأمانى « إنه لما انصرف مع أبيه بعد أن فداه بنحر مائة من الإبل لرؤيا رآها مر على امرأة كاهنة متهودة قد قرأت فى الكتب يقال لها فاطمة فقالت له حين نظرت إلى وجهه وكان أحسن رجل فى قريش – لك مثل الإبل التى نحرت عنك وأبذل لك نفسى ، لما رأت فى وجهه من نور النبوة ورجت أن تحمل بهذا النبى الكريم ﷺ . فأجابها بقوله :

أما الحرام فالممات دونه — والحل لا حل فاستبينه
فكيف بالأمر الذى تبغينه — يحمى الكريم عرضه ودينه

ثم خرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبدمناف بن زهرة وهو يومئذ سيد زهرة نسبا وشرفا فزوجه ابنته آمنة وهى يومئذ أفضل امرأة من قريش نسبا وموضعا . فحملت برسول الله ﷺ . ثم خرج من عندها فمر بالمرأة التى عرضت عليه ماعرضت فقال لها : مالك لاتعرضين على اليوم ماعرضت بالأمس . فقالت فارقك النور الذى كان معك

فليس لى بذلك اليوم حاجة . إنما أردت أن يكون النور فى فأبى الله إلا أن يجعله حيث شاء » .

وفى أسانيد ابن هشام أن عبد الله « إنما دخل على امرأة كانت له مع آمنة بنت وهب ، وقد عمل فى طين له وبه آثار من الطين فدعاها فأبطأت عليه لما رأت به من أثر الطين ، فخرج من عندها فتوضأ وغسل ماكان به ، ثم خرج عائدا إلى آمنة فمر بامرأته الأولى فدعته فلم يجبها وعمد إلى آمنة فحملت بمحمد ﷺ ، ثم مر بامرأته تلك . . . فقالت له : مررت بى وبين عينيك غرة بيضاء فدعوتك فأبيت »

قال إسحاق بن يسار صاحب الخبر : فزعموا أن امرأته تلك كانت تحدث أنه مر بها وبين عينيه غرة مثل غرة الفرس . قالت : فدعوته رجاء أن تكون لى . فأبى على ، ودخل على آمنة فحملت برسول الله . . . »

وجاء فى غير خبر أن فتيات مكة ذهبت بهن الحسرة لزواج عبد الله من آمنة ، وكانت كل فتاة منهن تتمناه زوجا لها لجماله وتحدث الناس بفدائه .

وفى كل هذه الأخبار قسط من الصحة لانهمله ولانسوى بين رواية السير له وبين خلوها منه ، فإن مجيئه فى السير يثبت لنا معنى صادق الدلالة وإن يكن غير معناه المقصود : يثبت لنا لونا من شعور الناس بصاحب السيرة ولونا من تعبيرهم عن ذلك الشعور . ومن كان هذا المعنى لغوا عنده فخير له أن يتجنب السير والتواريخ .

وأما حكم الواقع على حدوث الخبر فحسبنا فيه حكم القرآن الكريم الذى يبطل علم الكهان بالغيب كما ينكره على أعوانهم من الجان . وفى

سورة سبأ عن سليمان بن داود عليهما السلام : « فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خرّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين »

والقرآن الكريم يقول فى غير موضع إنه لايعلم الغيب إلا الله . ويقول بلسان النبى : ولا أعلم الغيب .

فلا كاهن يعلم من أمر الدنيا سرا من أسرار الغيب فضلا عن أمر النبوة والرسالة ، والكاهنة التى تريد أن تحمل بنبى لايخطر لها أن تحمل به سفاحا فيقول لها عبد الله :

أما الحرام فالممات دونه   والحل لا حل فأستبينه

وأما أن تكون زوجة ثم لاترى من زوجها تلك الغرة قبل ذهابها ثم تأبى معاشرته بعد ذهابها – فليس مما يجوز تصديقه من شئون الزواج .

فالقصة كلها ، وماشابهها من القصص ، رغوة وزبد وزبدتها جمال عبد الله وأسى النفوس لما فات ذلك الجمال فى عنفوان صباه .

ولانكران لما كان عليه عبد الله من الوسامة والوضاءة وغضارة الشباب سواء حفظت لنا السيرة قصة من تلك القصص أو جاءتنا غفلا منها ؛ فقد حفظت لنا رؤية العيان أنه كان وإخوته يطوفون بالكعبة مع أبيهم فيأخذون الأبصار ؛ ولم يصف الواصفون بنى هاشم بدمامة أو معابة فى الخلق والصورة ، حتى فيما وصفهم به الشانئون وطلاب العيوب .

* * *

وفيما وصل إلينا من سيرته قصة غير تلك القصص لاقبل للمبالغة وحدها بأن تخلقها ، لأنها تحتاج إلى افتنان فى وصفها وتحتاج – مع الافتنان – إلى مصلحة مفروضة تدعو إلى اختلاقها ، أو علة من العلل المعروفة تفسر لنا ذلك الاختلاق .

وتلك هى قصة النذر التى أوردناها فى الكلام على الكعبة ، وهى تقوم بديوان جامع من القصص للتعريف بخلائق عبد الله .

وليس يكفى فى معيار النقد التاريخى أن يكون اختراع القصة ممكنا ليقال إنها مخترعة . فإن اتهام كل خبر بالاختراع لأنه يجوز أن يخترع يسقط أخبار التاريخ كله فى الزمن القديم وفى الزمن الحديث ، وإنما يظن الاختراع بالخبر لمسوغ يدعو إلى الشك فيه ولمصلحة توجب اختراعه وتضطرنا اضطرارا إلى نفيه على ثقة أو على ترجيح .

وهذه القصة بعينها ينبغى قبل نفيها أن نعرف مصلحة المسلم أو الجاهلى فى اختراعها وإلصاقها بعبد المطلب وعبد الله ؛ فقد قيل إنها اخترعت لتصوير عبد الله أبى النبى فى صورة الذبيح إسماعيل ؛ وقيل إنها لم تظهر فى الجاهلية قبل البعثة الإسلامية .

فهل من مصلحة مسلم أن يختلق القصة ليقول إن جد النبى أوشك أن يذبح أباه قربانا للأصنام ؟

وهل من مصلحة جاهلى أن يبدع الافتنان فى القصة وفى وسيلة الخلاص من الفداء لينكر على سدنة الكعبة قدرتهم على استخبار أربابها ويرجع بالفضل فى الوسيلة والاستخبار إلى كاهنة خيبرية تفتى لهم فى شئون عباداتهم وأبنائهم حيث يعجزون عن الفتيا وهم مفتقرون إليها ؟

ولم هذا التخصيص بعبد المطلب وعبد الله ؟ ومن الذى كان عنده من قدرة الافتنان فى القصص مثل هذه القدرة ثم خفى أمره ولم تأت منه أفنونة مثلها فى زمانها ؟

وهناك مسوغ آخر للظن يبدر إلى الذهن إذا كانت هذه القصة قد حدثت لاحد قبل عصر عبد المطلب ثم نقلت إليه ، كما حدث كثيرا فى القصص المتكررة التى تروى عن أناس متفرقين ، ولكن هذه القصة بذاتها لم ترد بها الرواية فى بلاد العرب أو غيرها عن أحد غير عبد الله ، وليست هى مما يوضع فى بلاد لم تعهد السهام وضرب القداح والفداء بالإبل والتقرب إلى كعبة تجمع الأصنام من هبل إلى نائلة إلى أساف . فلماذا اخترعت فى بلاد العرب وخص عبد الله باختراعها عليه ؟

إن لم تكن هناك شبهة من هذه الشبهات ومسوغ من هذه المسوغات فقبول القصة أولى من رفضها ، وتأليفها على هذا الافتنان لغير قصد معلوم أصعب فى وقوعها ، وقد تساق فى معرض ترجيحها وتداولها إلى منتصف القرن الأول للهجرة رواية للطبرى يقول فيها بعد سند متصل : « أن ابن عباس سألته امرأة إنها نذرت ذبح ولدها عند الكعبة فأمرها بذبح مائة من الإبل وذكر لها هذه القصة عن عبد المطلب ، وسألت عبد الله بن عمر فلم يفتها بشيء بل توقف ، فبلغ ذلك مروان بن الحكم وهو أمير على المدينة فقال إنهما لم يصيبا الفتيا ، ثم أمر المرأة أن تعمل ما استطاعت من خير ونهاها عن ذبح ولدها ولم يأمرها بذبح الإبل ، وأخذ الناس بقول مروان »

والحق بين رفض القصة وقبولها أنه لا موجب لرفضها وليس فى قبولها

ما يخالف مألوفا من مألوفات زمانها . وقد كان نذر عبد المطلب طلبًا عزيزًا من الإله يبذل له فديته . وكان الوفاء من فضائله المأثورة وكان مع الوفاء بالنذر إيمان بسوء العقبى وحذر من أن يصيب الجزاء أبناءه جميعا . فليس فى هذا الوفاء خليقة تختلق لأنها فوق طاقة الإنسان .

ومن ارتضى قصة النذر هذه فنصيب عبد الله عنده أعظم من نصيب أبيه . لأنه سلم حياته فدية لإخوته ولم ينكص عن طاعة أب وطاعة رب . ومن يفعل ذلك ينبئ عن إيمان قوى بالواجب وإقدام على الموت فى ريعان الشباب . وقد كان له أن يتحمل المعاذير فلا تعوزه الحيلة . فكأى من رجل لا ينكر الدين ولا يمرق منه إذا سامه الدين ما يعز عليه لم تتعذر عليه الحجة للتحلل من فرائضه والاجتراء على أوامره ونواهيه .

على أن الملاحظة التى تستوقف من أمر هذه الأسرة القوية المباركة أن أخبارها المتناثرة التى ترسل أرسالا فى المناسبات المتفرقة أدل عليها من الأخبار التى تنتظم فى مناسبة واحدة وتحتمل مظنة الوضع والتأليف . ومهما تتناثر الأخبار عن أحوالها فى الجاهلية نخلص بنا إلى خصلة ملحوظة فى جميع هذه الأخبار وهى « النظام » الذى تتوخاه فى معاملاتها وعلاقات أفرادها على البديهة بغير تدبير مقصود .

فمن هنا كلمة ومن هنالك خبر ومن جوانب شتى أحاديث وروايات وكلها يطبع بهذا الطابع بغير شذوذ حتى حين ينتظر الشذوذ ولا يستغرب ، فأبو لهب نفسه — وهو الخارج على اجماع الأسرة — يأبى فى مجلس قريش أن يسام أخوه الكبير — أبو طالب — ما لم يتعوده

من الطاعة والتوقير ، ويحضر مجلس الأسرة فلا يزيد على كلمة يقولها حين يسمع من أخيه أنه ينصر محمدا ولا يستمع فيه لملامة بعيد أو قريب ، ثم ينصرف من المجلس وهو كظيم .

أما فى سائر مجامع الأسرة فالطاعة والتوقير سنة لا يخالفها صغار الأسرة فى مجالس كبارها ، فإذا جلس عميدها جلسوا وراءه وصمتوا فى حضرته لا يبدءون بالكلام إلا أن يدعوهم إليه . ومن هنا عجبهم أن يقبل الغلام اليتيم إلى مجلس جده فيقصد إليه ويجلس إلى جواره ، وهم مع علمهم بإشفاق الجد عليه وتدليله إياه يستدعونه إليهم ليجلس معهم حتى يأمرهم الجد فيسكتوا عنه وهم لا يقلون إشفاقا عليه .

ومن نظام الأسرة أن عبد الله خرج بعد زواجه مع أول قافلة حان موعدها ولم يتخلف عامه ذاك إلى عام قابل ، وهو يفرغ من عرسه الذى كان خليقا أن يطيله تلهف أبيه وآله على حياته بعد اليأس منه فى قصة النذر المشهور ، فخرج مع القافلة ولما ينقض على زفافه أسبوعان على أرجح الأقوال .

ولاشىء أشبه بالواقع المنظور فى قصة زواج عبد الله بعد الوفاء بنذره واستبقاء حياته ، فإن أباه – لا جرم – قد امتلأت نفسه زمنا بشبح الموت يطيف بولده الحبيب إليه ، فليس أقرب إلى خاطره من تعويض ذلك الشعور الجاثم على صدره بالاطمئنان على بقاء فتاه والغبطة بدوامه ودوام ذريته من بعده ، ولا سيما الدوام بعد النذر الذى كان مبعثه تعيير الشانئين بقلة الذرية وابتئاس الأب خوفا من انقطاع العقب مع ولد وحيد .

واختار الأب زوجة عبد الله من بنى زهرة احلاف بنى هاشم والمطلب فى كل خلاف : زوجه آمنة بنت وهب أعرق بنى زهرة نسبا وأكرمها محتدا ومدره العشيرة كلها فى مجامع قريش ، وينتهى نسبه لابيه وأمه إلى عبد مناف ، وقد فخر رسول الله بانتسابه إلى هذه الأمومة فقال : «أنا ابن العواتك من سليم» .

روى الإمام أبو نعيم الحافظ فى كتاب دلائل النبوة بعد إسناد متصل : «أن عبد المطلب قدم اليمن فى رحلة الشتاء فنزل على حبر من اليهود . قال : فقال لى رجل من أهل الدبور – يعنى أهل الكتاب – يا عبد المطلب ! أتأذن لى أن أنظر إلى بعضك ؟ قال : نعم إذا لم يكن عورة . قال : ففتح إحدى منخرى فنظر فيه ثم نظر فى الآخر فقال : أشهد أن فى إحدى يديك ملكا وفى الأخرى نبوة . وأنا نجد ذلك فى بنى زهرة فكيف ذلك ؟ قلت لا أدرى ! قال هل لك من شاغة ؟ قلت وما الشاغة ؟ قال الزوجة ! قلت : أما اليوم فلا . قال فإذا رجعت فتزوج فيهم . فرجع عبد المطلب فتزوج هالة بنت وهب بن مناف بن زهرة فولدت حمزة وصفية ، ثم تزوج عبد الله بن عبد المطلب آمنة بنت وهب فولدت رسول الله . فقالت قريش حين تزوج عبد الله بآمنة فلج – أى فاز – وغلب عبد الله على أبيه» .

وهذا مثل من الأخبار التى لا تثبت على النظر وتبنى على حقيقة ثابتة وهى اتصال النسب بين آل عبد المطلب وآل وهب ، واتصال البيتين فى الحياة الزوجية لما كان من الاتصال بينهما فى الحياة العامة ، ولم يأت هذا الاتصال القديم بنبوءة من ناسك فى اليمن تتكشف من النظر فى منخرين .

انتقل عبد الله بعروسه من حى وهب إلى حى عبد المطلب بعد أيام العرس ، فلم يطل فيه البقاء إلا ريثما أذن مؤذن القافلة بالرحيل .

ولم يعد من رحلته تلك إلى داره . فإنها كانت الرحلة الأخيرة لكل راحل أو قاعد فى هذه الحياة : رحلة من ظاهر الأرض إلى جوف الضريح .

وولد النبى عليه السلام بعد موت أبيه على أشهر الروايات ، فأرضعته أمه وأرضعته معها ثويبة جارية عمه أبى لهب . ثم عهد به إلى حليمة بنت ذؤيب تستتم رضاعه فى بادية قومها بنى سعد على سنة العلية من أشراف مكة ، يبتغون النشأة السليمة واللغة الصحيحة بعيدا من أخلاط مكة وأهوائها . ولم يكن الطفل اليتيم على يسار لأن أباه مات فى مقتبل الشباب ، ولكن أسرة أبيه وأسرة أمه تكفلتا بنشأته كما ينشأ أبناء السراة من قريش ، فأخذته المرضعة بعد تردد . ثم أعادته إلى مكة قبل أن يبلغ الثالثة ، لأنها سمعت من ابنها أن أخاه القرشى قد صرع وهو معه ، وأن رجلين أخذاه فإذا هما يشقان بطنه ولا يزالان يسوطانه . فلما ذهبت إليه حيث ترك ابنها وجدته قائما ممتقع الوجه . فبادرت به إلى مكة مخافة عليه ، وطلبت إليها أمه أن تعود به إلى البادية تخشى على الطفل من هواء البلد ولا تخشى عليه من ذلك الخطر الذى خشيته المرضع الرؤوم ، بعدما سمعته من ابنها ورأته من امتقاع لون الوليد القرشى وقيامه منفردا فى الخلاء . فلما عادت به إلى البادية أتم رضاعه فيها ولبث معها إلى الخامسة أو قبلها بقليل ، وتكلم وجرى لسانه بالعربية الفصحى وهو بين بنى سعد ، فذلك فخره بعد النبوة إذ يعجب الصحابة من

فصاحته فلا يرى عليه السلام عجبا فى فصاحة عربى نشأ فى بنى سعد وتربى فى الذؤابة من قريش .

* * *

ولم يكد الصبى يطمئن إلى جوار أمه بعد عودته من البادية حتى فقدها وهما فى زيارة لقبر أبيه بالمدينة .

وما كان قد بقى فى الدنيا للفتاة الأيم غير هذا الصبى وذكرى أبيه الراحل فى غربتين : غربة الموت وغربة المكان .

فخرجت به ضيفا تزور الفقيد الراحل فى مثواه وتحسبه مشوقا تحت طباق الأرض إلى رؤية الوليد الذى لم تبصره عيناه تحت شمس النهار .

وكذلك تزور الوليد اليتيم أباه .

فلما قضت حق الزيارة ولبثت فى جيرة أخوال عبد الله شهرا أو بعض شهر ، قفلت بوليدها راجعة إلى مكان ، فماتت ودفنت فى الطريق .

وكل ما وعته السيرة من مرضها أنها وعكت من لفحة السموم فلم تطل بها الوعكة غير أيام .

* * *

ومن اليسير أن نعلم وقع هذه الفاجعة فى نفس الصبى اليتيم ، يتجدد له مصابه فى أبيه فلا يكاد يبرح ضريحه حتى يقف على ضريح أمه مهجورا فى عرض الطريق .

إلا أن هذه الفاجعة بما تدل عليه أهم فى دراستنا هذه مما خلقته فى نفس الصبى الصغير .

مصابه فى أبيه ومصابه فى أمه ، ولم يزل صبيا صغيرا حين أطبق عليها مصابه فى جده الذى ضمه إليه بعد فقد أبويه .

لو نفس صغيرة تتابعت عليها هذه الضربات فى صباها لسحقتها واستنزفت كل ما حوته من عطف وأمل ، فلا تعيش – أن عاشت بضرباتها – إلا كما يعيش الأشباح فى ظلمات الحياة .

فاذا وجبت لنا وقفة عند هذه الضربات التى تلقاها الصبى فأول ماتقف لديه وأولاه بالوقوف الطويل إنها دلالة على القوة فى مكمنها وعلى الروح العظيم الذى تجلّى بعد ذلك فى تاريخ بنى الإنسان ، كفؤا لأعظم الأعباء وأفدح الخطوب .

وتلى ذلك وقفتنا أمام العطف الذى أفادته تلك النفس القوية من ضربات تسحق مادونها وتنزف منها كل عطف وأمل .

وقد خرج الصبى من تلك الضربات القاصمة بالعاطفة الزاخرة التى تشمل العالمين : عالم الحياة ومابعد الحياة ، منذ كان أحب الناس إليه فى عالم آخر لاتبديه له هذه الحياة ، وجاءت بعثته إلى الناس كافة باسم الله الرحمن الرحيم .

ولعله أول فتح أطل عليه من فتوح عالم الغيب فاستمد منه بعد ذلك قوته التى دان لها هذا العالم المشهود .

دنياه بعد ذلك أوسع من دنيا الناس وأعم من دنيا الأحياء .
وحاجز الموت عنده برزخ تتصل به الدنيا والآخرة ويعيش فيه الحى والميت ، ولاينتقل فيه الخلق فى دنياهم ليهلكوا آخر الدهر بل ليعيشوا آخر الدهر خالدين .

وقليل فى جنب هذا فائدة العطف الذى عهدناه من صباه إلى ختام حياته يحيط به كل إنسان وكل حى وكل شىء . وإنما يترجم عنه عطفه على حاضنته وعلى مرضعته وعلى كل باق من بقايا أمه وأبيه ، ولم يزل يترجم عنه عطفه الذى لم يحرمه أحد قط من صاحب أو صديق .

* * *

ولاندع الكلام على الأسرة النبوية وفى الخاطر سؤال توحى إلينا أن نسأله وأن نجيب عنه ما أستطيع الجواب .

لقد مات عبد الله وآمنة ولما يجاوزا الخامسة والعشرين . ولايكون الموت فى هذه السن إلا علامة على الضعف والهزال ، إن لم يكن من مرض يستنفد الأجل فى عنفوان الشباب .

فهل كان محمد عليه السلام سليل أبوين ضعيفين هزيلين ؟

إن لم تكن غرابة الالتقاء بين الأبوين على هذا الضعف كافية لدفع هذا الظن فلا حاجة إلى دافع له غير حياة الوليد بما استوفته من قوة الروح وقوة الجثمان .

وقد سأل أناس من كتاب الغرب هذا السؤال وخيل إليهم أنهم وجدوا جوابه فى قصة الصرع المزعوم قبل الفطام وفيما كان يعروه من برحاء الوحى التى وصفها الأقربون منه ، وأيسرها أنه كان عليه السلام يرعد ويضطرب ويتقاطر منه فى اليوم الشاتى عرق كحب الجمان .

وعجيب أن يصاب الإنسان بصرع لايعروه غير مرة واحدة فى سن الرضاع ، ثم لايعاوده مرة أخرى إلى قرابة الأربعين .

نتيجة النتائج

ونتيجة النتائج من مقدماتها جميعا أن حوادث الدنيا وحوادث الجزيرة وحوادث الأسرة ، قد مهدت سبلا شتى للرسالة المحمدية ، ولكنها مهدتها لتأتى الرسالة بعدها فتثور عليها وتنكث غزلها ، وتعيدها على العالم الإنسانى فى نسج جديد .

يتيم فى غير ذلة .

عزيز فى غير قسوة .

يرث الكعبة ولكنه يهدم أربابها ، ويرث الاريحية من يقين بنى هاشم ولكنه يغير مجراها ، ويرث العصبية فى أقواها وأمنعها ولكنه يقودها إلى عصبية واحدة تضم إليها العرب والعجم ، وتؤمن برب واحد هو رب العالمين .

وجائز أن يكون صاحب الرسالة قد عرف فى صباه كل دين من أديان الجزيرة العربية ، ولكنه ليس بالجائز أن تعلمه كيف ينكر أخطاءها ويقوم التواءها ويرتقى بها من أوشاب الشرك إلى صفاء التوحيد .

مهدت له الدنيا طريقا ولكنه هداها إلى غير تلك الطريق .

فهما تمهيدان يتلاقيان ويفترقان : تمهيد من قوانين الكون وتمهيد من العناية الأزلية ، وحيث ينهض رجل واحد بما يأباه قومه ويأباه معهم أقوام زمانه ، فليست هى بإرادة إنسان ولكنها إرادة الله ، وما هى بقدرة أحد أو آحاد ولكنها قدرة الخالق فيما خلق ، يوليها من يشاء حيث شاء .

فهرس